

أسواق الذهب

أحمد شوقي

أسواق الذهب

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

تأليف

أمير الشعراء أحمد شوقي



هنداوي

رقم إيداع ١٤٧٥٣/٢٠١٢

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٥١٧١ ٤٦٧

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٩	مقدمة
١١	الحَقِيقَةُ الْوَاحِدَةُ
١٥	الْوَطَنُ
٢٣	الْجُنْدِيُّ الْمَجْهُولُ
٢٩	فَنَاءُ السَّوِيسِ
٣٧	الذِّكْرَى
٤١	السَّمْسُ
٤٥	المَوْتُ
٤٩	دُعَاءُ الصَّلَاةِ الْعَامَّةِ
٥١	الشَّبَابُ
٥٣	الْخَيْرُ
٥٥	الظُّلْمُ
٥٧	الْقَلْبُ
٥٩	الذِّكْرَى
٦١	شَاهِدُ الزُّورِ
٦٣	الصَّبْرُ
٦٥	شَهَادَةُ الدِّرَاسَةِ وَشَهَادَةُ الْحَيَاةِ
٦٧	الْحَيَاةُ
٦٩	الْحَيَاةُ أَيْضًا
٧١	الْحَيَاةُ أَيْضًا

٧٣	اللِّسَانُ
٧٥	الْبَيَانُ
٧٧	الْمَالُ
٧٩	الْأَهْرَامُ
٨١	الْأَمْسُ
٨٣	الْيَوْمُ
٨٥	الْغَدُ
٨٧	الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ
٩١	الشَّهَادَةُ
٩٣	الصَّلَاةُ
٩٥	الصَّوْمُ
٩٧	الرِّزْقَةُ
٩٩	الْحَجُّ
١٠١	خَطِيبُ الْمَسَاجِدِ
١٠٣	الطَّلَاقُ
١٠٥	الْبَحْرُ الْأَبْيَضُ الْمُتَوَسِّطُ
١٠٩	صَفَةُ الظَّنْبِيِّ
١١١	صَفَةُ الْأَسَدِ
١١٣	الْأَسَدُ فِي حَدِيثَةِ الْحَيَوَانَاتِ
١١٧	الْجَمَالُ
١١٩	الْأُمُومَةُ
١٢١	الْكَاتِبُ الْعُمُومِيُّ
١٢٣	الْحَيَاةُ وَهُمْ وَلَعِبُ
١٢٥	الْعَلْمُ
١٢٧	السَّجْعُ
١٢٩	النَّقْدُ
١٣١	الزُّهْرَةُ
١٣٣	السَّاقِيَةُ

المحتويات

١٣٥

١٣٧

السَّيِّحُ الْمُهَنْدَمُ
خَوَاطِرُ

مقدمة

الحمدُ لله الذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، وَأَلَّهَمَ نَوَابِغَ الْكَلِمِ، وجعل الأمثالَ والحِكَمَ: أَحْسَنَ أَدَبِ الْأُمَمِ،
وصلى اللهُ وسلَّم على محمدٍ دِيْمَةَ الْبَيَانِ الْمُنْسَجِمَةِ،^١ وعلى موسى الكليم وعيسى الكلمة.^٢
وبعدُ: فهذه فُصُولٌ من النثر، وما زَعَمْتُ أنها غُرَرُ زياد،^٣ أو فِقَرُ الفصيح من إياد،^٤
أو سَجْعُ الْمُطَوِّقَةِ على فرعِ غصنها الميَّاد،^٥ ولا توهمتُ حين أنشأتُها أني صنعتُ «أطواقَ
الذهب» للزَّمخْشَرِيِّ،^٦ أو طبعتُ «أطباقَ الذهب»، للأصْفَهَانِيِّ، وإن سميتُ هذا الكتاب بما
يُشْبِهُ اسميهما، وسميته^٧ بما يقرُّبُ في الحسن من وسميهما — وإنما هي كلماتٌ اشتملتُ
على معانٍ شتَّى الصُّورِ وأغراضٍ مختلفةِ الخَبَرِ، جليلةِ الخَطَرِ؛ منها ما طال عليه القَدَمُ،
وشاب على تناوله القَلَمُ، وألَمَّ به الغُفْلُ^٨ من الكُتَّابِ والعَلَمِ.^٩ ومنها ما كَثُرَ على الألسنة في

^١ الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق والمنسجم السائل المنصب.

^٢ الكليم: لقب موسى لأنه كلم الله. والكلمة: لقب عيسى، عليهما السلام.

^٣ زياد بن أبيه من أشهر خطباء الدولة الأموية.

^٤ هو قس بن ساعدة الأيادي، ويكاد يكون أخطب خطباء الجاهلية. والفقر: جمع فقرة، وهي من النثر

بمنزلة البيت من الشعر.

^٥ المياد: الكثير الميِّد، والميِّد، الميل والتحرك.

^٦ أطواق الذهب، وأطباق الذهب: كتابان من كتب المقامات في الوعظ والإرشاد، وكلاهما في عليا مراتب

البلاغة: الأول لجار الله الزمخشري. والثاني للعلامة الأصفهاني عليهما رحمة الله.

^٧ وسم الشيء: جعل فيه أثرًا. والوسم: الأثر والعلامة.

^٨ الغفل: المجهول.

^٩ العلم: المقدم.

هذه الأيام، وأصبح يَعْرِضُ في طُرُقِ الأَقْلَامِ، وتجري به الألفاظُ في أعنة^{١٠} الكلام؛ من مثل: الحرية والوطن، والأمة، والدُّستور، والإنسانية وكثير غير ذلك من شئون المَجْتَمَعِ وأحواله، وصفاتِ الإنسانِ وأفعاله، أو ماله علاقة بأشياءِ الزمنِ ورجاله؛ يكتنِفُ ذلك أو يمتزجُ به: حِكْمٌ عن الأيامِ تلقِيئُها، ومن التجارِبِ استَمَلِيئُها، وفي قوالبِ العربيةِ وعيتها^{١١} وعلى أساليبها حَبْرُتُها ووشِيئُها؛^{١٢} وبعضُ هذه الخواطرِ قد نَبَعَ من القلبِ وهو عند استِجْمَامِ عَفْوِهِ^{١٣} وطلَعِ في الذهنِ وهو عند تمامِ صَحْوِهِ وصفْوِهِ؛ وغيرُهُ — ولعله الأكثرُ — قد قيل والأكدارُ سارية، والأقدارُ بالمكارةِ جارية، والدارُ نائية، وحكومةُ السيفِ عابثة عاتية؛ فأنا أستقبلُ القارئِ فيه السَّقَطَاتِ، وأستوهبُهُ^{١٤} التِجَاوُزَ عن الفِرَطَاتِ.^{١٥}

اللهمَّ غيرِ وجهك ما ابتغيت، وسوى النفعِ لخلقك ما نويت، وعليك رجائي ألقيت.
وإليك بذلي وضعفي انتهيت.

١٠ أعنة: جمع عنان.

١١ وعى: حفظ.

١٢ حبر الكلام ووشاه: حسنه وزينه.

١٣ استجم الماء استجمامًا: كثر واجتمع. والعفو من الماء: ما فضل عن الشاربة وأخذ من غير كلفة ولا مزاحمة.

١٤ استوهبه: سأله الهبة.

١٥ الفرطات: جمع فرطة، وهي ما فرط من الشخص من تقصيره.

الحَقِيقَةُ الْوَاحِدَةُ

يا مُتَابِعِ الْمَلَاِحِدَةِ، مُشَايِعِ الْعُصْبَةِ الْجَاِحِدَةِ، مَنْكَرِ الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ: ^١ ما لِلْأَعْمَى وَالْمَرَاةَ، وَمَا لِلْمُقْعَدِ ^٢ وَالْمِرْقَاةَ، ^٣ وَمَالِكَ وَالْبَحْثَ عَنْ اللَّهِ؟
قُمْ إِلَى السَّمَاءِ تَقْصُّ النَّظَرَ، وَقُصِّ الْأَثْرَ، ^٤ واجْمَعِ الْخُبْرَ وَالْخَبْرَ ^٥ كَيْفَ تَرَى ائْتِلَافَ
الْفَلَكِ، وَاخْتِلَافَ النَّسُورِ وَالْحَلَكِ. ^٦ وَهَذَا الْهَوَاءُ الْمَشْتَرِكُ، وَكَيْفَ تَرَى الطَّيْرَ تَحْسَبُهُ تُرْكًا،
وَهُوَ فِي شَرِّكَ، ^٧ اسْتَهْدَفَ فَمَا نَجَا حَتَّى هَلَكَ، ^٨ وَتَعَالَى اللَّهُ! دَلَّ الْمَلِكُ عَلَى الْمَلِكِ! وَقَفَّ

^١ الحقيقة الواحدة: وجود الله سبحانه وتعالى، ولعل المؤلف يشير إلى قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

^٢ المقعد: الذي يشكو القعاد: وهو داء يقعد المصاب به عن المشي.

^٣ المرقاة: السلم.

^٤ أرسله إلى أقصاه.

^٥ قص الأثر: اقتفاه.

^٦ الخبر: الاختبار بالمشاهدة والخبر: الرواية بالسمع.

^٧ الحلك: الظلام.

^٨ تظنه حرًا طليقًا، وهو أينما حل في متناول قبضة الصياد.

^٩ استهدف: أصبح غرض السهام. والمراد أنه لا يكاد ينجو من سهم مصوب إليه حتى يدركه الموت من سهم آخر.

بالأرضِ سَلَّهَا من زَمٍّ ١٠ السحابَ وأجراها، ورَحَلَ ١١ الرياحَ وَعَرَّأها، ١٢ ومن أقعد الجبالَ
وأنهضَ ذُرَاها، ١٣ ومن الذي يَحُلُّ حُبَاها، ١٤ فتَجَرُّ له في غِدِّ جِباها؟ أليس الذي بدأها
غَبَرَاتٍ، ١٥ ثم جمعها صَخْرَاتٍ، ثم فَرَّقَهَا مُشْمَخِرَاتٍ؟ ١٦ ثم سَلَ النملَ مَنْ أَدَقَّهَا خَلْقًا، ١٧
ومَلَّأها خُلُقًا، ١٨ وسَلَكَهَا طُرُقًا؟ ١٩ تَبْتَغِي رزقا؟ وسلِ النحلَ مَنْ أَلْبَسَهَا الحَبِرَ، ٢٠ وَقَلَّدَهَا، ٢١
الإِبْرَ، وَأَطْعَمَهَا صَفَوَ الزَّهْرِ، وَسَخَّرَهَا طَاهِيَةً ٢٢ للبشر؟ لقد نبذتَ الدُّلُولَ ٢٣ المُسَعِفَةَ، ٢٤
وأخذتَ في معامِي ٢٥ الفَلَسَفَةَ، على عَشَوَاءٍ من الضلالِ مُعَسِفَةَ. ٢٦ أَوْلَا فَخَبَّرَنِي: الطَّبِيعَةُ
من طَبَعَهَا ٢٧ والنُّظْمَ ٢٨ المتقادمةَ مَنْ وَضَعَهَا، والحياةَ الصانِعَةَ مَنْ صَنَعَهَا، والحركةَ

١٠ زم الناقة: خطمها.

١١ رحل البعير: شد على ظهره الرحل تمهيدًا للمسير.

١٢ عراها: جردها مما فيها من أمطار.

١٣ أقعد الجبال: ثبت قواعدها في الأرض. وأنهض ذراها: أي رفع عاليها شامخة في السماء.

١٤ يحل حباها: أي يفكها من حبوبتها وينهضها من ريبتها.

١٥ غبرات: جمع غيرة — بتسكين الباء — وهي ذرة الغبار.

١٦ فرقها: في الأرض. ومشمخرات: أي باذخات.

١٧ أدقها: صيرها دقيقة.

١٨ خلق النمل: تلك النظم المتسقة التي يوحي لها بها الإلهام.

١٩ سلكها طرقًا: جعل لها طرقًا تسلكها.

٢٠ الحبر: جمع حبرة كعنبية، وهي برود يمنية ملونة، وقد شبه بها المؤلف تلك الألوان الزاهية التي يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس.

٢١ قلده السيف: وضع حمالته في عنقه.

٢٢ طاهية: طابخة تطبخ للناس في بطونها عسلًا.

٢٣ الدلول من الدواب: ما كانت سهلة القيادة، والمراد بها هنا الشريعة السمحة.

٢٤ المسعفة: التي تسعف أبناءها باليقين والإيمان.

٢٥ المعامي: المجاهل.

٢٦ العشواء: العمياء وأعسف: خبط في السير.

٢٧ طبعها: خلقها وهنا يبدأ المؤلف في تعجيز الملحدين.

٢٨ النظم المتقادمة والحياة الصانعة والقوة الدافعة، وكل هذه قوى يظن الملحدون كفرًا أنها هي الأصل في الكائنات.

الحَقِيقَةُ الْوَاحِدَةُ

الدافعة مَنْ الذي دَفَعَهَا؟! عَرَفْنَا كما عرفتَ المادَّةَ، ولكنْ هُدينا وَضَلَّتْ الجادَّةُ،^{٢٩} وَقُلْنَا
مِثْلَكَ بالهَيُولَى^{٣٠} ولكنْ لَمْ نَجِدِ اليَدَ الطُّوْلَى^{٣١} ولا أَنْكُرْنَا الحَقِيقَةَ الْأُولَى.^{٣٢} أَتَيْنا العِناصِرَ
مِنْ عُنْصُرِها،^{٣٣} وَرَدَدْنَا الجِواهِرَ إلى جِوهرِها؛^{٣٤} اطَّرَحْنَا^{٣٥} فَاسْتَرَحْنَا، وَسَلَّمْنَا فَسَلِمْنَا،
وَأَمَّنَّا فَأَمِنَّا؛ وما الْفَرْقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلا أَنْكَ قد عَجَزْتَ فَقَلْتَ: سُرُّ مِنَ الْأَسْرارِ، وَعَجَزْنَا نحن
فَقُلْنَا: اللهُ وَراءَ كُلِّ سِتار!!

^{٢٩} الجادة: الطريق القويم.

^{٣٠} الهيولى: مادة، وشبه الأوائل طينة العالم بها.

^{٣١} اليد الطولى: يد الله التي أبدعت هذه الطينة ونفخت فيها الروح.

^{٣٢} الحقيقة الأولى: وجود الله.

^{٣٣} العناصر: جمع عنصر، وهو أولاً بمعنى المادة البسيطة، وثانياً بمعنى الأصل وأتيناها: أي بحثنا فيها.

^{٣٤} الجواهر: جمع جوهر، وهو الحجر يستخرج منه شيء ينتفع به. والجوهر ثانياً بمعنى الأصل والحبلة.

^{٣٥} اطرح الحمل: ألقاه عن عاتقه، والمقصود من هذه الجملة وما بعدها: آمنا بالله وتركنا ما دون هذا من التفكير العقيم الذي لا نهاية له والبحث الضال الذي لا يؤمن فيه العثار..

الوَطَنُ

[حبّ الوطن والتفاني في سبيله سجية كل نفس كبيرة. وقد أوحى هذه العاطفة بأعظم ما حفظه لنا التاريخ من المآثر وجليل الأعمال، وأبلغ ما جادت به القرائح من روائع الآيات والأقوال.]

ولقد طالما أشاد «المؤلف» في شعره بذكر الوطن وتغنى بوصف آثاره الخالدة بقصائد تضمن لها بلاغتها من الخلود ما لتلك الآثار. ولطالما استخلص من بيانه سحرًا أحيًا مفاخر الأباء والأجداد، فبعثها من لحود الأجيال الغابرة تتمثل عظمتها ورُوعتها للأبناء والأحفاد.

لم يقف «المؤلف» من آثار وطنه وقوف العرب على الطلول يبكيها ويرثيها، بل مسحها بدموع قلبه ليحييها ويستوحيها. فجعل من تغنيه بما كان من المفاخر للوطن في الغابر من الزمن حُداءً منه للخلف لاحتذاء آثار السلف. ولو جمع جامع ما قال المؤلف في مفاخر الوطن من يوم قال منذ ثلاثين سنة:

وبنينا فلم نُخَلِّ لِبَانٍ
وعلونا فلم يَجُزْنَا عِلاءٌ
لاجتمع لديه خير سَفَرٍ شامل للدروس الوطنية.

وهذه القطعة من الشعر المنثور أنشودة عذبة للوطن جمع فيها كاتبها جميع الأنغام التي يثيرها ضرب الوطنية الصادقة على أوتار القلوب كما سنبينه في ما نعلقه عليها من

الحواشي: الوطن موضع الميلاد، ومجمع أوطارِ الفؤاد، ومضجع الآباءِ والأجداد،^١ الدنيا الصُّغرى، وعتبةُ الدار الأخرى، الموروث الوارث، الزائلُ عن حارثٍ إلى حارثٍ، مؤسسُ لبانٍ، وغارسُ لبانٍ، وحيٌّ من فانٍ، دواليكٌ حتى يُكسَفَ القمران، وتَسْكَنَ هذي الأرض من دوران.

أول هواءٍ حركَ المروحتين،^٢ وأول تُرابٍ مسَّ الرَّاحَتَيْنِ، وشعاعُ شمسٍ اغترق العين؛ مَجْرَى الصُّبَا وملعبه، وعُرسُ الشبابِ وموكبُه، ومرادُ الرزقِ ومَطْلَبُه، وسماءُ النبوغِ وكوكبُه، وطريقُ المجدِ ومركبُه؛ أبو الآباءِ مُدَّتْ له الحياةُ فخلدَ، وقضى الله ألاَّ يبقى له ولد؛ فإن فاتك منه فائت فانهب كما نهب أبو العلاء عن ذكر لا يفوت، وحديث لا يموت. مدرسة الحقِّ والواجب، يقضي العمرَ فيها الطالب، ويقضي شيءٍ منهما عنه غائب؛ حقُّ الله وما أقدسُه وأقدَمُه، وحقُّ الوالدين وما أعظَمُه، وحقُّ النفسِ وما ألزَمُه؛ إلى أخ تُنصفُه، أو جارٍ تسعفه، أو رفيقٍ في رحالِ الحياةِ تتألفُه، أو فضلٍ للرجالِ تُزيئُه، ولا تُزيئُه،^٣ فما فوق ذلك من مصالحِ الوطنِ المقدَّمة، وأعباءِ أماناتهِ المعظَّمة؛ صيانةُ بِنائِه، والضنَّانةُ بأشْيائِه، والنصيحةُ لأبنائِه، والموتُ دونَ لوائِه؛ قيود في الحياة بلا عدَد. يكسرُها الموتُ وهو قيدُ الأبد.

^١ جاء في مقدمة الجزء الأول من الشوقيات: «إنها «مصر» بلادي، وهي مَنْشئِي ومهادي، ومقبرة أجدادي؛ ولدا لي بها أبوان، ولي في ثراها أب وجدان. وبيعض هذا تحبب إلى الرجال الأوطان». والوطر: الحاجة والغرض. والحارث: الزارع. ودواليك: أي مداولة بعد مداولة. تناول الكاتب في هاتين الفقرتين وصف الوطن عن طريق التحديد، وهو كما حدده ابن سينا في رسائله: الحد الجامع المانع، أي الوصف المحيط بمعنى المعرف المميز له عن غيره. فوصف الوطن بالمؤسس للبانِي، والغارس للجانِي، وبمجرى الصبا وملعبه، وعرس الشباب وموكبه ... إلى غير ذلك من الأوصاف، كما وصفه بموضع الميلاد. ومضجع الآباء والأجداد، وأول هواء حرك المروحتين، وأول تراب مس الراحتين. إلى غير ذلك من الأوصاف المانعة المميّزة له عن سواه. وهكذا جاء بخواص المعرف وأوصافه وأعراضه التي من شأنها أن تبين حقيقته.

^٢ المروحتان: الرثتان. والراحتان: الكفان. واغترق العين. أي شغلها عن النظر إلى غيره.

^٣ زيف الرجل: صغر به وحقر.

^٤ الضنَّانة بالشيء، كالضن به؛ البخل والحرص عليه. تناول الكاتب في هذه الفقرة حقوق الوطن على أبنائه أو واجبات الوطنيين نحو وطنهم ففصلها أجمل تفصيل، دون أن يفوته وصف كل حق بوصفه الملازم: من حق الله وحق الوالدين وحق النفس إلى حق الإخوان وسائر أبناء الوطن: مجموعة حقوق يتألف منها حق الوطن على كل إنسان، ولو أدى القيام بهذا الحق إلى التضحية بالنفس دفاعاً عن

رَأْسُ مالِ الأُمَمِ فِيهِ مِنْ كُلِّ نَمَرٍ كَرِيمٍ، وَأَثَرِ ضئِيلٍ أَوْ عَظِيمٍ، وَمُدَّخَرِ حَدِيثٍ أَوْ قَدِيمٍ؛ يَنمو عَلَى الدَّرْهَمِ كَمَا يَنمو عَلَى الدِّينَارِ، وَيَربُو عَلَى الرِّزَانِ كَمَا يَربُو عَلَى الوَابِلِ المِدرارِ، بَحْرٌ يَتَقَبَّلُ مِنَ السُّحْبِ وَيَتَقَبَّلُ مِنَ الأَنْهَارِ.

فِيا خادِمِ الوَطَنِ ماذا أَعَدَدْتَ لِلبِناءِ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ زِدْتَ فِي العَناءِ مِنْ شَجَرٍ؟ عَلَيْكَ أَنْ تَبْلُغَ الجُهدِ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تَبْنِيَ السدَّ؛ فَإِنما الوَطَنُ كالبُنْيَانِ فَقيرٌ إِلَى الراسِ العاقِلِ، والساعِدِ العاملِ، وَإِلَى العَتَبِ الوَضِيعَةِ، والسقوفِ الرَّفِيعَةِ، وكالروِضِ محتاجٌ إِلَى رَخيصِ الشَّجَرِ وَثمينِهِ، وَنَجيبِ النِّباتِ وَهجينِهِ، إِذْ كانِ ائتلافُهُ فِي اِختلافِ رِياحينِهِ، فَكُلُّ ما كانَ مِنْها لَطيفاً مَوْقِعُهُ، غَيْرِ نابٍ بِهِ مَوْضِعُهُ، فَهو مِنْ نوايِجِ الرُّهْرِ قَريبٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي البَدِيعِ وَلا الغَريبِ.^٥

حَظيرة^٦ الأَعراضِ والعُرُوضِ، ومحرابُ السُّنَنِ والفُرُوضِ، سِيدُ الأَديمِ، صَفحاتِهِ التارِخِ الكَريمِ، وبوغاؤُهُ عِظَمُ الأَبوَّةِ وَإِنه لِعَظِيمٍ، وَعَلَى جِوانِبِهِ الدِولَةُ وَهي حَسَبُ الأُمَمِ الصَمِيمِ؛ وَتَمَّ كِرايِمُ الأَموالِ والأَنْفِيسِ وَهي عَوالِ، وَتَمَّ ثَمَراتُ الرِّجالِ وَضائِنُهُمُ اللَّاتِي حَلَفَ الحِجالِ. فِيا عَجَباً كِيفَ يَجْعَدُ الأَوطانَ الجاحِدِ، أَوْ يَزَعُمُ أَنَّ الأَرْضَ كُلَّها وَطَنٌ واحِدٌ؛ قَضِيةٌ تُضَحِكُ النَمَّ فِي قُراها، والنَّحَلَ فِي خَلاياها؛ وَيَنبُتُكَ عَنها السَّمَكُ إِذْ اتَّخَذَ مِنْ

الوطن. ثم قال: إن هذه الواجبات ينبغي للإنسان القيام بها في جميع أدوار الحياة، فلا ينعقد منها إلا بالمئات.

^٥ الرزاذن: المطر الضعيف والمال القليل. والوابل المدرار: المطر الشديد الضخم القطر والنجيب: الكريم الحسيب من الإنسان والحيوان. والهجين: من أبوه خير من أمه، وناب: أي نافر. يريد: أن كل إنسان مهما ارتفع شأنه أو اتضع مكانه قادر على خدمة الوطن بل هو مطالب بتلك الخدمة. فعمد موقفاً إلى التشبيه والاستعارة فقال إن البناء محتاج إلى العتب الوضيعة والسقوف العالية وإن الروض لا يتم بهاؤه وجماله إلا بمختلف الأزاهير والرياحين. وقد انتقل من الأخبار إلى الخطاب فقال: فيا خادم الوطن ماذا أعددت ... وهو التفات بليغ.

^٦ الحظيرة — في الأصل — مأوى الإبل والغنم. والأعراض جمع عرض وهو المتاع. والعروض: جمع عرض وهو الشرف. البوغاء: ما يثور من الغبار ودقائق التراب. والضنائن: جمع ضئيلة، وهو ما يرضن به. والحجال: جمع حجلة، وهي ستر العروس داخل بيتها. يفند الكاتب مزاعم أصحاب مذهب اللواتنية القائلين بأن الأرض جميعها وطن للناس جميعاً. وضرب السمك في البحر: مثلاً لضرر الشيوعية في الوطن. وقرى النمل. وخلايا النحل، وأوكار الطير، وأحجار السباع: أماكنها ومنازلها.

البحر وطناً شائعاً، فوُلِدَ مهدوراً وعاش ضائعاً، صِغَارُهُ طرائد، وَكِبَارُهُ موائد، وَيَتَّصِدُّ بعضُهُ بعضاً إن أبطأ الصَّائد.

والوطنُ شَرِكَةٌ^٧ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَبَيْنَ الْحَضِرِ وَالْغَابِرِ، لَا يَرِثُ لَهَا عَقْدٌ، وَإِنْ تَطَاوَلَ الْعَهْدُ، مُؤَسَّسَةٌ بِالْمَهْدِ حِينًا وَبِاللَّحْدِ؛ يُدْخَلُ فِيهَا الْمِيلَادُ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا النِّفَادُ، فَقَدْ تَضَرَّمُ النَّارَ وَأَنْتَ هَامِدٌ كَالرَّمَادِ، وَقَدْ تَحَيَا بِكَ الدِّيَارُ وَأَنْتَ بَوَادٍ وَالْحَيَاةُ بَوَادٍ. وَالْوَطَنُ مَسْتَوْدَعُ الْمَفَاخِرِ وَصَوَانُ الْمَآثِرِ، وَخِزَانَةُ الْأَعْلَاقِ وَالذَّخَائِرِ، لِكُلِّ مُتَقِنٍ مِنْهَا مَوْقِعُهُ، وَلَا يَنْبُو بِصَالِحٍ فِيهَا مَوْضِعُهُ؛ الْهَرْمَانُ لَدَيْهَا مَعْظَمَانُ، وَ«شَيْخُ الْبَلَدِ» شَيْخُ الصَّنَاعَةِ عَلَى الزَّمَانِ؛ وَعِنْدَهَا سَيْفٌ «عَلِيٌّ» وَمَغَارِسُهُ، وَقِنَاةٌ «إِسْمَاعِيلِيٌّ» وَمَدَارِسُهُ، وَفِيهَا الْقِصَائِدُ الْبَارُودِيَّةُ، وَلَيْسَ فِيهِ الْخُطْبُ النَّدِيمِيَّةُ؛ تِلْكَ لِقُرْبِهَا مِنْ كَلَامِ الْحِكْمَةِ، وَهَذِي لِبُعْدِهَا عَنِ الْإِتْقَانِ وَالْحِشْمَةِ؛ فَيَا لِكَ خِزَانَةٌ تُمَيِّزُ الصَّاحِحَ مِنَ الزِّيُوفِ، وَتَعْرِفُ الضَّيْفَانَ مِنَ الضِّيُوفِ، وَتَحْجُبُ الْعِصِيَّ وَتَأْدُنُ لِلسِّيُوفِ.^٨

صَحِيفَةُ الْأَخْبَارِ، وَكِتَابُ الْأَبْرَارِ، وَسِجْلُ الْهَمَمِ الْكِبَارِ، أَسْمَاءُ الْمُحْسِنِينَ فِيهِ مَرْفُوعَةٌ، وَأَفْعَالُهُمْ مَثَلٌ لِلْخَلْفِ مَنْصُوبَةٌ، وَحُرُوفٌ بِمَاءِ الذَّهَبِ مَكْتُوبَةٌ؛ فَإِذَا أَتَتْ السَّنُونَ، وَدَارَتْ عَلَى الرُّجَالِ الْمُنُونِ، وَلِحِقَّتْ بِالْمَشَايِعِ الشَّيْعِ، وَذَهَبَ الْمَتَّبُوعُ وَالتَّبَعُ؛ وَنَامَتْ الْحَرَابِيُّ^٩ عَنِ الشَّمُوسِ، وَجِيَلٌ بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَ الْمَجُوسِ؛ انْفَتَحَ كِتَابُ الْوَطَنِ مِنْ نَفْسِهِ وَإِذَا لِحْسَنَاتُ نَمَّ عَلَى الصَّدَقِ مُخْصَاةً، فَلَا الْحِصَاةُ دُرَّةٌ وَلَا الدُّرَّةُ حِصَاةٌ؛ وَإِذَا الرُّجَالُ يُعْظَمُونَ عَلَى

^٧ كنى عن ارتباط حاضر الوطن بماضيه بشركة معقودة بين السلف والخلف. يرث: يبلي. ويرد بإضرامك النار وأنت هامد كالرماد، وإحيائك الديار بعد خروجك من الحياة: أن الأموات كثيراً ما يكونون يمثل حياتهم العالي أكبر حامل للأحياء على حميد الفعال. وبهذا المعنى قال أحد فلاسفة الفرنجة: يتألف الوطن من الأموات أكثر مما يتألف من الأحياء.

^٨ صوان الشيء: وعاءه؛ وأعلاق الأشياء: نفاسها. والزيوف: الدراهم المغشوشة. والضيفن: من يجيء مع الضيف متطفلاً. والمراد: أن الوطن يحفظ مآثر الرجال، وقد ضرب ما تراه في المتن من الأمثال عما يحفظه الوطن المصري للمصريين، ثم انتقال في الفقرة التالية من التخصيص إلى التعميم. وشيخ البلد: آية من آيات فن النحت عند قدماء المصريين، يجده الناظر في دار الآثار. وقناة إسماعيل: قناة السويس. والبارودية نسبة إلى محمود سامي باشا البارودي. والنديمية: نسبة إلى عبد الله نديم.

^٩ الحرابي: جمع حرباء: حيوان معروف يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألوانها.

الأفعال، وإذا الوقائع قد نُحِتَ منها الأبطال؛ على قدر العمل يأتي الجزاء، وبِقَدْرِ جمال الأثر يكونُ حسنُ الثناء.

وليس أحدٌ أولى بالوطنِ من أحد، فما «باستور»^{١٠} والشفاءُ في مَصْلِهِ، ولا «كمال» والحياءُ في نَصْلِهِ؛ أولى بأصل الوطنِ وفصلِهِ؛ من الأجير المحسن إلى عيَالِهِ، الكاسبِ على أطفالِهِ، الفادي الوطنَ بأشبَالِهِ، وهم رأسُ ماله؛ فلا تَحَمَّدُ^{١١} على الأوطانِ بآثارِ كرم، وإن حَمَلَتْ عليها الهَرَمَ أو نَفَلَتْ إليها إرم، فإنك لم تَزِدْ على أن أقمْتِ جِدَارَكَ؛ وحسَّنتِ دارَكَ؛ ولا تنسِ أنها الآلةُ التي رفعتك، والهالةُ التي أطلعتك؛ ولا تحجُبِ ذاتِ الوطنِ بذاتِكَ، أو تَطْرِفِ العيونَ عن وجهِهِ بقدَاتِكَ؛ ولا تكنْ كالسَّرحِ العظيمِ إذ نسيَ خلقَهُ إذا علا على الأرضِ وهي أمُّه، ماؤها عُصارةُ عودِهِ، وطينُها جُرثومةٌ وُجودِهِ؛ حتى إذا ترعرَعَ وكَبِرَ أخفاها وظَهَرَ، وحجَبَ عنها الشمسَ والقمر؛ خلعتْ عليه ما نَصَرَ ورَفَّ، وألقى عليها ما يَبِسَ من الورقِ وجفَّ.

والوطنُ لا يَتِمُّ تمامُهُ. ولا يَخْلُصُ لأهلِهِ زَمَامُهُ؛ ولا يكونُ الدارَ المستقلَّةَ، ولا الضَّيعةَ الخالصةَ الغلَّةَ؛ ولا يقالُ له البلدُ السيد المالك، وإن تحلَّى بألقابِ الدُّولِ والممالك؛ حتى يُجِيلَ العِلْمُ فيه يدَ العمارة. ويجمع له بين دُولابِ الصَّنَاعَةِ وسوقِ التِّجَارَةِ.^{١٢} فيا جيلِ المستقبلِ، وقبيلِ الغدِ المؤمِّلِ؛ حاربوا الأُمِّيَّةَ فإنها كَسَحُ الأُممِ وسَرَطَانُهَا؛ والتَّعْرَةُ التي تُوْتِي منها أوطانُهَا، ظَلَمَاتٌ يُعْرَبُ فيها حَفَاشُ الاستبدادِ، وقبورٌ كلُّ ما

^{١٠} «باستور» عالم كيمائي فرنسي (١٨٢٢-١٨٩٥) صاحب مباحث نظرية الميكروبات في الأمراض المعدية، ومخترع المصل الواقي والشافِي، وهو من أكبر الرجال الذين خدموا الإنسانية بعلمهم، «وكمال» هو الغازي مصطفى كمال باشا أسد أنقرة وبطل تركيا المشهور. والقيادة: ما يقع في العين ويوجعها. والسرح: شجر؛ وقد أبدع في تشبيهه من يمن على الوطن بخدمته: بالشجرة التي ترتفع عن الأرض وتتعاظم عليها، وهي إنما تمص منها مادة الحياة.

^{١١} تتحمّد: تمتن. وحمل عليه الشيء: ألحقه به. والهالة: دارة القمر. وطرف البصر عنه: صرفه.

^{١٢} رف النبات اهتز، والدولاب: الآلة. والكسح: داء في اليدين والرجلين يثقلهما عن الحركة. وقد انتقل الكاتب من الوصف والتحديد البياني إلى ذكر الدعائم التي تبني عليها عظمة الوطن ويشاد عليها صرح استقلاله وهي العلم والتجارة والصناعة، وحذر بنوع خاص من أنصاف الجهال أو أنصاف المتعلمين كما حذر من الجهل. وبمناسبة ذكر «باستور» في الفقرة السابقة نذكر أن هذا الرجل العظيم كان يقول «قليل من العلم يبعد عن الله، وكثير من العلم يعيد إلى الله».

فِيهَا لَصَبِعُهُ غَنِيمَةٌ وَزَادَ؛ وَتَذَرَعُوا^{١٣} بِذِرَائِعِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ، اظْلُبُوهُ فِي مَدَارِسِ الزَّمَانِ وَحَلَفَاتِهِ، وَخَذُوهُ عَنِ جِهَابَتِهِ وَثِقَاتِهِ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ أَنْصَافَ الْجُهَّالِ: لَا الْجَهْلَ دَفَعُوا، وَلَا بَقِيلِ الْعِلْمِ انْتَفَعُوا؛ وَبَنَى الْوَطْنَ الْوَاحِدَ إِخْوَةً وَإِنْ ذَهَبَ كُلُّ فَرِيْقٍ بِكِتَابٍ، وَوَصَلَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْ بَابٍ؛ وَاتَّبَعَ أَنْاسُ الْإِنْجِيلِ، وَأَنْاسٌ اتَّبَعُوا التَّنْزِيلَ، وَكُلُّ بِلَادٍ تَسُوْسُهَا حُكُومَةٌ فَاضِلَةٌ، وَتُقَيِّدُهَا الْقَوَانِيْنَ الْعَادِلَةَ، وَتَعْمُرُهَا جَمَاعَةٌ عَاقِلَةٌ عَامِلَةٌ، إِنَّمَا يُفَرِّقُ فِيهَا بَيْنَ الْوَطَنِ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ وَشُؤْنُهَا، وَالدُّنْيَا وَشُجُونُهَا، وَالْحُكُومَةَ نَظْمُهَا وَقَانُونُهَا، وَالْمَمْلَكَةَ سُهُولِهَا وَحُزُونُهَا، وَالذُّوْلَةَ أَطْرَافِهَا وَحُصُونُهَا، وَبَيْنَ الدَّنِّ الَّذِي هُوَ السَّمَاءُ الرَّفِيعَةُ، وَالذَّرْوَةُ الْمُنِيعَةُ؛ وَوَالِيَةَ الضَّمَائِرِ، وَسِيَاسَةَ السَّرَائِرِ.^{١٤}

وَمَا وَطَنُ الْمَحْسِنِينَ إِلَّا الْأُسْرَةُ الْكُبْرَى، وَالسَّقْفُ الْوَاحِدُ وَالْمَنْزَلُ الْحَاشِدُ، الْقَوْمُ فِي ظِلَالِهِ، عَلَى الْبِرِّ وَخِلَالِهِ؛ إِخْوَانٌ مُتَصَافُونَ، وَأَهْلٌ مُتَنَاصِفُونَ، وَجِيرَانٌ مُتَأَلِّفُونَ، قَصْدٌ فِي الْبَغْضَاءِ، وَبُعْدٌ عَنِ الشَّحْنَاءِ؛ أَلْسِنَةٌ عَقِيْفَةُ الْعَدْبَاتِ،^{١٥} وَصُدُورٌ نَظِيْفَةُ الْجَنَابَاتِ؛ تَرَاهِمُ كَالنَّحْلِ إِنْ سُوِلَتْ عَمِلَتْ الْعَسْلَ، أَوْ حُورِيَّتْ أَعْمَلَتْ الْأَسْلَ؛ فَاطْبَعِ اللَّهُمَّ كِنَانَتَكَ عَلَى هَذَا الْغِرَارِ، وَأَعِدْهَا كَمَا بَدَأْتَهَا مَحَلَّةَ الْأَبْرَارِ، وَاجْعَلْ أَبْنَاءَنَا أَحْرَارًا وَلَا تَجْعَلْهُمْ أَنْصَافَ أَحْرَارِ.

رَبِّنَا وَأَنْزِلْهُمْ عَلَى أَحْكَامِ الْعُقُولِ وَقَضَايَا الْأَخْلَاقِ، وَلَا تُخْلِهِمْ مِنَ الْعَوَاطِفِ، وَإِنْ كُنَّ عَوَاصِفٌ؛ وَلَا تَكْلَهُمْ لِلْأَهْوَاءِ، فَإِنَّهَا هَوَاءٌ؛ وَخَذُّهُمْ بِرُوحِ الْعَصْرِ وَسُنَّةِ الزَّمَانِ، وَاجْعَلْهُمْ حَفَظَةَ الْعَرْشِ وَحِرَاسَةَ الْبِرْلَمَانِ.^{١٦}

^{١٣} تذرَعُوا: أَي تَوَسَّلُوا.

^{١٤} أَلَا يَكُونُ الدِّينُ دَاعِيَةً تَفْرِقُهُ فِي الْوَطَنِ، وَهُوَ دَرِ الْمَوْئَلِّفِ حَيْثُ يَقُولُ شَعْرًا كَمَا يَقُولُ هُنَا نَثْرًا:

الدِّينُ لِلَّهِ مِنْ شَاءِ الْإِلَهِ هَدَى لِكُلِّ نَفْسٍ هَدَى فِي الدِّينِ يَعْنِيهَا

التَّنْزِيلِ: الْقُرْآنِ. الْحَزْنُ: مِنَ الْأَرْضِ: مَا غَلِظَ.

^{١٥} الْعَدْبَاتِ: الْأَطْرَافِ. وَالْأَسْلُ: الرِّمَاحُ، وَهُنَا بِمَعْنَى الْإِبْرِ. الْغِرَارِ الْمِثَالُ الَّذِي تَضْرِبُ عَلَيْهِ النَّصَالِ.

^{١٦} وَنَعَمْ مَا خَتَمَ بِهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْوِثَامِ وَالتَّصَافِي حَتَّى تَعُودَ الْكِنَانَةُ إِلَى سَابِقِ مَجْدِهَا. وَلَمْ يَكُنْ يَسْعُهُ أَنْ يَخْتَمَ نَشِيدَ الْوَطَنِ هَذَا دُونَ النِّقْرِ عَلَى وَتَرِ الْأَخْلَاقِ، وَهُوَ الَّذِي طَالَمَا دَعَا إِلَى الْأَخْلَاقِ، بَلْ هُوَ الْقَائِلُ ذَلِكَ الْبَيْتَ الْمَشْهُورَ الَّذِي لَا نَعْرِفُ بَيْتًا كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ مَوْضُوعَ اسْتِشْهَادٍ لِلْكِتَابِ وَالْأَدْبَاءِ فِي رُبْعِ الْقَرْنِ الْمَاضِي:

الوَطَنُ

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهب أخلاقهم ذهبوا

الجُنْدِيُّ المَجْهُولُ

[تكريم الجندي المجهول: فكرةٌ أُوحت بها الرغبةُ في تمجيد البطولة الصامتة:
البطولة التي تعمل في الخفاء، ولعلَّ هذه الفكرة أجمل ما ولدته الحربُ الكبرى
من الأفكار.]

مَنْ هو الجنديُّ المجهول؟ وما هي حكايته؟

اسمع تلك الحكاية ففيها عبرةٌ وذكرى: أودت الحرب العالمية الأخيرة بآلاف من الجنود البُسُل، وكل منهم يدافع عن قومه وبلاده، فسجلت أسماءهم على ألواح البرونز وقطع المرمز تخليدًا لذكورهم. ولكن هناك من بينهم مئات الألوف ماتوا كذلك ميتة الأبطال ولكن أسماءهم ضاعت لأن جثثهم الممزقة اختلطت بجثث رفاقهم فلم يكن من سبيل إلى تبيُّن شخصهم أو تحقيق هويتهم؛ لذلك أرادت فرنسا — وحذت سائر الدول حذوها — أن تتخَيَّر واحدًا من هؤلاء الأبطال المجهولين ترفعه إلى ذروة المجد وتقيم له من معالم التكريم ما لم تُقمه لأكبر الغزاة الفاتحين، فُتُكِّرم في شخصه المجهول مئات الألوف من الأبطال الذين تنكَّرت جثثهم على الناس.

هذا منشأ تلك الفكرة النبيلة؛ فاسمع الآن كيف كان تنفيذها في فرنسا: كانت موقعة «فردان» أعظم مَوْقِعَةٍ دارت رحاها بين أعظم جيشين في العالم، دامت شهورًا طوالاً وسالت فيها مهج مئات الألوف على شظايا القنابل وظبى السيوف حتى أصبحت أرجاؤها جبانة مترامية الأطراف.

ومن القتلى الراقدين في ثراها تقرَّر اختيار الجندي المجهول، فأخذوا من أنحاء ذلك الميدان العظيم ثماني جثث لم تعرف لمن هي. اختاروا ثمانية من بين خمسمائة ألف قتيل، ووضعت كل جثة في نعش ونقلت النعوش الثمانية في ليل ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠

إلى حصن «فو» حيث أُوقدَتْ حولها الشموع وقامت الجنود تحرسها، ثم تقدم القائد وأشار إلى أحد جنود الفرقة ١٣٢ فخرج الجندي من الصف ودفع إليه القائد باقةً من زهر القرنفل الأبيض والأحمر وقال له أن يدور دورتين حول النعوش الثمانية فيلقي بالباقة على نعش منها، ففعل وما كاد يلقي زهرات القرنفل على أحد النعوش حتى عزفت الموسيقى بنشيد المرسلين ورفع الضباط سيوفهم للتحية. ومن تلك الدقيقة أصبح الراقد في ذلك النعش مثال التضحية والتفاني، وصار تكريمه تكريمًا للمليون ونصف المليون من الجنود الذين قتلوا في الحرب دفاعًا عن فرنسا ووطنهم.

ثم نقل ليلاً إلى باريس. وفي اليوم التالي أُقيم له احتفال نَدَرَ أن شَهِدت تلك العاصمة العظيمة ما يضارعه فخامةً وأبهةً وتأثيرًا في النفوس، مشى في موكبه الوزراء والقواد ورجال الدولة وعشرات الألوف من الناس تتقدمهم ٨٠٠ راية من رايات فرق الجيش المختلفة حتى وصلوا به إلى «قوس النصر» حيث قام ضريحه، وعلى أثر ذلك أصبح الآباء والأمهات والأزواج والأخوات يحجون إلى هذا الضريح وكلّ يعتقد أن فيه ابنًا أو زوجًا أو أختًا. وما زار باريس ملك أو وزير أو كبير إلا عدَّ من أول فروض المجاملة زيارة قبر الجندي المجهول وتحيته ووضع الزهر عليه.

وما كان للمؤلف أن يترك مثل هذا الموضوع بلا جولة لخياله فيه، وقد أراد أيضًا أن يضع زهرة من زهر أدبه الرائع على ضريح الجندي المجهول، فكتب هذا الفصل: ذلك الغُفْلُ في الرَّمَم، صار نَارًا على عَلم، جَمَعَ ضحايا الأمم، كما جَمَعَ الكتابةَ القلم، أو الكتيبةَ العَلم.^١

تمثالٌ من إنكار الذات، والفناء في بقاء الجماعات، وصورة من التَّضحية المبرِّاة من الآفات، المنزَّهة عن انتظار المُكَافأة، وهَيْكَل على الواجب من عِظامٍ أو رُفات؛ تَقْرَأ على صفحاته العَجَبُ العاجب، تَفْسِير الجالين من موتٍ وواجب. وتَتَنقَّلُ من آية على آية، وترى كيف جَرَى الإيثارُ للغاية. وكيف سَالَتِ النفوس على جنَبات الرِّاية.

ولا يعلمُ إلا اللهُ لِمَنِ الحِيفة المحظوظة، أو تلك البقايا المصونة المحفوظة؛ الرِّعْدِيد، أم لصِنْدِيد؟ ولبطلٍ مَشوق، أم لَمُكْرَه مَسوق؟ ولشيطان استعماري، أم هي لِربِّي حَوَارِي؟

^١ الغفل: ما لا علامة ولا وسمه فيه، وهو أيضًا الشاعر المجهول أو الكتاب الذي لم يسم واضعه. والرمة — جمعها رمم ورمام: العظام البالية: أي إن هذه الجثة المجهولة بين الجثث قد أصبحت عنوان الشهرة ورمز التضحية كما فصل ذلك في الفقرة التالية.

ولمُغَمَّر من سواد الجُند، أم لمأثورٍ من بيضِ الهند؟ وهل كانت لبُدَّة أُسامة، أم كانت جِلْدَةَ النُّعامة؟ وهل هي هيكل المتنبى أم وعاء أبي دُلامة.^٢
وكيف تعرفُ جثة نكرتها الأيام، وسارت الأرض فيها سنتها في الرمام، إلى أن وقعت عليها يدٌ في الرجام، كما تقعُ على النصيب الرابع يدُ الغلام؛ فخرجت بها من غمرة الرَّمم، وحُفرة الأُمم، وبؤرة العدم.^٣

وإذا هي تنفصل عن سواد الهامدين، وتتصل بالأفراد الخالدين؛ تهجرُ مغمورات الكفور، وتعمُر مشهورات القبور؛ وبين ذلك جنازةٌ للعصر حولها ضجَّة، وللأرض تحتها رجَّة، مواكبها ملءُ اليبس واللَّجَّة؛ أعلامٌ منكوسة، وقنأ صُمٌّ، وكتائبُ خُرس، وأنغامٌ محزونة، ودموعٌ مذروفة وملوكٌ أو رُسلُ ملوك، وبرقُ يروح ويغدو في السلوك، وينعى الزاجليَّة والألوك، فهل شيعت نابليون، أو ولنجتون، هل بلغت هوجو البانثيون؛ سوَّى الحظ بين هؤلاء، وبين ذلك النِّكرة في الأشلاء، وأجزل للقيط الموتى من العطاء، كما يجزل أحياناً للقطاء.^٤

اسأل العصر: فيم نبشُ القبور، وقلِّب الهامدين البور، من أجل هذا الشلو المتبور؛ حتى التقطه بيد الحظ الوهوب، أو يد السيَّارة المباركة على ابن يعقوب؟ (يُجبك): أليس

^٢ المَحظوظة: من حظ: كان ذا حظ. والرعيد: الجبان الكثير الارتعاد. والصنديد: السيد الشجاع. والمغمور: المجهول الخامل النسب، وغمرة القوم: علوه شرفاً. والربي: واحد الربيين، وهم الجماعة من الناس. والحواري: ناصر الأنبياء. وأسامة: الأسد، وهو مضرب المثل في الشجاعة كما أن النعمامة مضربة في الجبن: أي أن الله وحده يعرف لمن هذه الجثة التي كان لها كل هذا الحظ في التكريم: أي جثة رجل كريم عظيم؟ أم جثة واحد من سواد الناس؟.

^٣ الرمام: جمع رمة كما تقدم. والرجام: جمع رجم: القبر. والغمرة: المزدحم؛ أي أن الحظ أصابه حين اختاروه من بين الألوف من الجثث، كما تقدم في وصف الحفلة التي أقيمت لاختيار الجندي المجهول.

^٤ ملء اليبس واللجة، أي تسير برًا وبحراً، الكتيبة الخرساء: الفرقة من الجنود لا يسمع لها صوت لوقار أهلها في الحرب. والبرق الذي يغدو ويروح في السلوك هو الرسائل التلغرافية: والزاجلية: الحمام الزاجل حمام الرسل. والألوك والألوكة: الرسالة. وهذا وصف المواكب التي أشرنا إليها يوم نقل رفات الجندي المجهول إلى قوس النصر. و«نابليون»: بطل فرنسا الكبير وأشهر القواد العسكريين. و«ولنجتون» من مشهوري قواد الإنجليز: اكتسب شهرة بعيدة بانتصاره على نابليون في موقعة واترلو. و«فيكتور هوجو»: هو أشهر شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر. والبانثيون: اسم هيكل أقيم في روما القديمة لتكريم «جميع الآمة» والبانثيون المعنى به هنا: هو الصرح العظيم المشيد في باريس الذي يضم رفات مشهوري الرجال. والأشلاء: جمع شلو وهي الأعضاء بعد الجلي.

كُلُّ من شهد النفي العام فهو ذائد الوطن وحاميه! وكل من وجد في الحفير الجامع فهو مشتريه بمهجته وفاديه، مجهول بذل المجهود، وجاد بالنفسِ وذلك أقصى الجود، في موطن سوَى بين القائد والمقود، والسائد والمسود، توحدت النار وتشابه الوقود؛ وما حمل أعباء الجهاد مثل الميت، كالأساس دُفن فكان قوَامَ البيت.

كُلُّ حيِّ يموت، وكل ذخيرة تفوت، وكلُّ راحلٍ عن قومه وإن وجدهم بالأمس شتَّى فالَّف، أو نكرات فعرفَّ وخلفَ فيهم من فضل ما خلفَ، لا يسلم على الموت من حاسد يزور في الصحيفة، أو حاقدٍ يتشقى بالجيفة؛ فيا لك مُضغَّةً تقرض الكفن الجديد، وتسبق الدود إلى الصديد، إلا هذا الجنديَّ المجهول، فقد خلت جنازته من الهامس والهامز، والغامط والغامز؛ فقل لمن لم يعرفه الناس: طوبى لك، ما أنعم بالك، وما أنقى كفنك وسربالك.^٥

قبرٌ بين «حنية النصر» وبنية النسر، وفوق طريق العصر، لو كان لعيسى ضريح، لقلت قبر المسيح. كلُّ جريحٍ إليه يستريح، يقف به المحزون المتهاك، يقول هذا كله قبر مالك؛ وكأنَّ كلَّ أختٍ حوله الخنساء، وتحت ذلك الحجر صخر؛ وكلُّ أمِّ ذات النطاقين أسماء، وعبدُ الله في ذلك القبر؛^٦ دروسٌ عاليةٌ تلقى على الشباب، تعلمهم كيف جعل أبائهم حمايةً الغاب، فوق تفتان الأحزاب، وفتنة الأسماء والألقاب؛ حتى قرب تقديس الوطن الكريم، من عبادة العليِّ العظيم؛ وحتى تقربوا إلى الأوطان، بالذبح المنكر، كما دكر اسم الله على القربان، واسم القربان لم يُذكر.

^٥ أي كل ميت عم فضله لا يخلو من حاسد أو حاقد يعمل على انتقاص قدره، إلا هذا الجندي المجهول فقد كان بمأمن من الغمز والهمز.

^٦ حنية النصر أو قوس النصر: هو أخم بناء من نوعه قام في وسط ميدان من ميادين باريس يتشعب منه اثنا عشر شارعًا. وقد أمر ببناء هذا الصرح «نابليون» الملقب بالنسر، ولهذا سماه المؤلف: بنية النسر، وكان ذلك في فبراير سنة ١٨٠٦، ولم يتم فتحه إلا في يوليو سنة ١٨٣٦. وعلو هذا البناء ٥٠ مترًا بعرض ٤٥ مترًا وسمك ٢٢ مترًا. وهو مزين بأبهى النقوش وأجمل الرموز، وقد حفرت عليها أسماء مشهوري القواد والمواقع الكبيرة. وذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر الصديق، وقصة عبد الله بن الزبير حينما نصحته أمه أسماء بالمضي في الحرب بعد أن خذله أنصاره وخاف من أن يمثل به الأعداء: معروفة.

الْجُنْدِيُّ الْمَجْهُولُ

والمجدُّ أبعدُ أسفار الرجال، وله أزوادٌ وله رحالٌ؛^٧ جهادٌ طويل، وصبرٌ جميل،
وعقباتٌ بكلِّ سبيل؛ والجنديُّ المجهول ما سار من لحدٍ على لحد، حتى رَقِيَ أسوارَ المجد،
ودخل مملكةَ الخلد، وكان الطريقُ نقيًّا من الشوكِ وكلِّ وُرد؛ ذهبَ رَحِمَهُ اللهُ لا عن
ولد يرمينا بجنادل أبيه، ولا أخٍ يسحبُ علينا أكفان أخيه، وكفانا تَجَنِّي الشَّيْعة، وإدلال
الصنيعة، وكلَّ حِرباءٍ يتسلَّقُ الناسَ شجرًا إلى الشمس، يعبدها على مناكبهم من المهد إلى
الرمس.

^٧ الأزواد: جمع زاد. والرحال: جمع رحل وهو مركب البعير أو ما تحمله في سفرك من متاع.

قناة السويس

[كتب المؤلف هذه القطعة بمناسبة اجتيازه قناة السويس في طريقه إلى الأندلس التي اتخذها محل إقامة له إبَّان الحرب. وهي درس جميل بليغ في تاريخ مصر منذ أقدم العصور، نسج فيها نثرًا على المنوال الذي نسج عليه شعرًا في قصيدته الهمزية المشهورة التي قدّمها إلى المؤتمر الشرقي الدولي الذي عقد في مدينة جنيفا في سبتمبر سنة ١٨٩٤. ولئن أشار فيها أكثر من مرة إلى إسماعيل فلأنّ فتح هذه القناة تمّ على عهد ذلك الأمير العظيم بعد تذليل صعاب كثيرة. وكان افتتاحها في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م-١٢٨٦هـ وقد دعا الخديو إسماعيل إلى هذا الافتتاح جميع ملوك أوربة وألوفًا من الأمراء والسفراء وأقطاب السياسة وحملة الأقلام وأرباب الفنون والصنائع والتجارة حتى ضاقت بهم القصور، فنصب لهم في الصحراء ألف سرادق، وأنزل الإمبراطورة أوجيني «عقيلة الإمبراطور نابليون الثالث» وسائر الملوك وأمراء الأسرات الملكية في قصر منيف شاده خصيصًا لهم. وفي ١٦ نوفمبر أيمت حفلة دينية اشترك فيها مشايخ الإسلام وأساقفة النصارى وكهنة اليهود. وفي الصباح التالي ابتدأ الاحتفال بإطلاق المدافع ثمّ تقدم يخت الإمبراطورة «أوجيني» في القناة وتبعه يخت «فرنسوي جوزيف» إمبراطور النمسة ويخت «فردريك غليوم» أمير برسية، فيُخَوِّت سائر الملوك والأمراء فالسفن المقلّة للمدعوين والمتفرجين وعددها ٦٨ سفينة. ولما بلغ اليخت الإمبراطوري بحيرة التمساح حيّته ثلاثة مراكب حربية مصرية بإطلاق المدافع، فجاوبتها مدافع البرّ وعزفت الموسيقى وهتفت الجماهير المحتشدة على الشاطئ من القبائل

والأقوام المختلفي الجنسيات. وكان الخديو إسماعيل قد جمعهم في الإسماعيلية من كل أنحاء مصر والصحراء والسودان ومعهم نساؤهم وأولادهم ونوقهم ومواشيهم وغزلانهم فكان منظرٌ تلك الألوف — من بدو وحَصْرٍ ودرأويش ومغاربة وسودانيين.. الخ بأزيائهم وألوانهم المختلفة — مشهدًا فريدًا في بابهِ كلما أُتِيح للعين أن تقع على مثله وفي يوم ١٩ خرجت السفن من بحرية التمساح إلى البحيرات المرّة. وفي اليوم التالي بلغت البحر الأحمر قبيل الظهر بعد أن اجتازت القتال. ومن ذلك العهد فُتِحَتْ هذه الطريق للمراكب]:

تلكما يا ابْنِي القنّاة، لقومكما فيها حياة، ذكرى إسماعيلَ وريّاه، وعليا مفاخر دُنياه، دولة الشرق المرَجّاة، وسلطانهُ الواسعُ الجاه؛ طريقُ التّجارة، والوسيلة والمنارة، ومَشْرَع الحضارة.^١

تعبّرُنها اليومَ على مُزجاة، كأنها فُكُّ النجاة؛ خرجت بنا بين طوفان الحوادث، وطُغيان الكوارث؛ تفارق برًّا مغتصبهُ مضرّي الغضبة، قد أخذ الأُهبّة، واستجمَع كالأسد للوثبة، وتُلاقِي بحرًا جنّت جواريه، ونزّت بالشّرّ نوازية، وتمثّلت بكل سبيل عواديهِ؛ ملوءًا ببيغّات الماء، مترعًا بفجاءات السماء؛ مِنْ نُورٍ ينسفُ الدّوارع، أو طيرٍ يقذفُ البيضَ مصارع.^٢

فقلت: سيري عودتْكَ بوديعة التابوت، وبصاحب الحوت، وبالحيّ الذي لا يموت؛ وأسرى يا ابنة اليم زمامك الرّوح، ورُبّانك نوح، فكم عليك من منكوبٍ ومجروح.^٣ وإن للنّفّي لَروعة، وإن للنّأي لَلوعة، وقد جرّت أحكامُ القضاء، بأن نَعْبَرَ هذا الماء؛ حينَ الشّرِّ مُضْطَرَم، واليأسُ محتدم، والعدوُّ منتقم، والحصمُ مُحْتَكَم، وحين الشامتُ

^١ ذكرى إسماعيل: راجع ما ذكرناه في التوطئة. والمشرع: المورد.

^٢ المزجاة: السفينة، من أزجى الفك: ساقه وأجراه. ونزت: وثبت. و«طوفان الحوادث وطغيان الكوارث»: يعني بها عن ويلات الحرب الكبرى. والغضبة المضرية: نسبة إلى مضر بن نزار أبو القبيلة المعروفة باسمه. والجواري: السفن. والنون: الحوت. ويقصد به الغواصة. أي إننا نغادر اليوم برّا تحكم فيه الغاصب لنلاقي بحرًا بدت الويلات في كل جنباته: من غواصات تغرق السفن، وطائرات تلقي بالقذائف فيكون منها الموت.

^٣ وديعة التابوت: هو موسى. وصاحب الحوت: يونس.

جدلان مبتسّم، يهزأُ الدمع لم يَنْسَجِمَ، نفانا حَكَّامٌ عُجْم، أعوانُ العدوان والظُّلم، خَلَفْنَاهُمْ
يفرحون بذهب اللُّجم، ويمرّحون في أرسانٍ يُسْمُونَهَا الحُكْم.^٤
ضربونا بسيفٍ لم يطبعوه، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه؛ سامحُهم في حقوق
الأفراد، وسامحوه في حقوق البلاد، وما ذنبُ السيفِ إذا لم يَسْتَحْيِ الجَلادَ.^٥
ماذا تهمسان؟ كأني أسمعكما تقولان: أيُّ شيءٍ بدأ له، على هذه الضاحية؟ وماذا
شجا خياله، من هذه الناحية؟ وأيُّ حُسنٍ أو طيب، لِمَلْحٍ يتصبَّبُ في كثيب؟ ماءٌ عَكَرَ،
في رملٍ كَدِرَ، قَنَاةٌ حِمَّةٌ، كأنها قَنَاةٌ صَدِئَةٌ؛ بل كأنها وَعَبْرِيهَا رمال، بعضها متماسكٌ
وبعضها مُنْهال، وكأنَّ راكبَ البحرِ مُصَجِرَ، وكأنَّ صاحبَ البرِّ مُبَجِرَ.^٦
رويدكما ليس الكتابُ بزينةِ جلده، وليس السيفُ بجليّةِ غمده؛ تلك التَّنَائِفُ، من
تاريخكم صحائف؛ وهذه القفار، كتبٌ منه وأسفار؛ وهذا المجاز هو حقيقة السِّيادة
ووثيقة الشَّقَاءِ أو السعادة؛ خيط الرِّقبة، من اغتصبه اختصَّ بالغلبة، ووقف للأعقاب
عَقَبَةٌ؛ ولو سَكَّتْ لنطقت العِبرَ، وأين العِيانُ وأين الخَبْرُ؛ أنظرا تريا على العبرين عِبْرَةً
الأيام: حصونٌ وخيام، وجنودٌ قعودٌ وقيام؛ جيشٌ غيرنا فُرسانُه وقوَّادُه، ونحن بُعرانُه

^٤ انسجم الدمع: سال. وكنى بذهب اللجم وأرسان الحكم. عن ذل الحكومة تحت الحماية.

^٥ طبع السيف: عمله وصاغه. والمراد أنهم اتخذوا الحكومة ذريعة في يدهم لإلحاق الأذى بنا. وتركوا
هذه الحكومة تفعل ما تشاء بحقوق الأفراد لأنها أباحت لهم حقوق البلاد.

^٦ شجا: حزن. والكثيب: التل من الرمل. والقناة الأولى: التربة. والثانية: الرمح. وحمئة — من حميء
الماء: أي خالطته فكدر. والحماة والحمأ. الطين الأسود ومنه في الآية الشريفة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. وصدئة — من صديء الحديد: أي ركبه الطبع والوسخ. وعبر الوادي
وعبره: شاطئه وناحيته. قال النابغة في الفرات.

ترمي أواذيه العبرين بالزبد

وأواذيه: أمواجه. ومصحر: سائر في الصحراء. وصف القناة على لسان ولديه كما تبدو للعين، فهي
في الظاهر لا شيء سوى ماء ملح يسيل بين الرمال، أو كأنها بمائها العكر رمح علاه الصدا ملقى على
الرمل. ولكن يجب أن لا نأخذ بالظاهر كما بين الكاتب ذلك في الفقرة التالية التي رد فيها على ولديه.

وعلينا أزواده؛ ديكٌ على غيرِ جداره، حَلَا له الجوّ فصاح؛ وكلبٌ في غير داره، انفردَ وراءَ الدَّارِ بالنُّباحِ.^٧

القناةُ وما أدراكما ما القناة؟ حظ البلادِ الأعبر، من التقاءِ الأبيض والأحمر؛ بيَدَ أنّها أحلامُ الأوّل، وأماني الممالكِ والدُّول، الفراعنة حاولوها، والبطالسة زاولوها، والقياصرة تناولوها، والعربُ لأمرٍ ما تجاهلوا؛ إلى أن جرى القدرُ لغايته، وأتى إسماعيلُ بأيته، فانفتح البرزخُ بعنانيته، والتقى البحرانِ تحَ رايته، في جَمعٍ من التيجانِ لم يشهدهُ إكليله، قد كن يُنوّجُ فيه لو شهدتهُ جيوشه وأساطيله؛ وما إسماعيلُ إلا قيصرُ لو أنّه وُقِّق، والإسكندر لو لم يُخفِق؛ تركَ لكم عزَّ الغد، وكنزَ الأبد، والمنجمَ الأحد، والوقفَ الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد.^٨

^٧ التناؤف: جمع تنوفة: وهي المفازة، أو الأرض الواسعة التي لا أنيس بها. والمجاز: المعبر والمسلك، وهو في البيان: اللفظ المنقول من معناه الحقيقي إلى معنى يلابسه. وفي قوله: «وهذا المجاز هو حقيقة السيادة» تورية لطيفة. وخط الرقبة: نخاعها. يقال: دافع عن خيط رقبتة: أي عن دمه. رد على ولديه فقال: لا تأخذا بالظواهر، فما قيمة الكتاب بغلافه، ولا قيمة الحسام بقرابه، وهذه القناة الكدرة هي خلاصة تاريخ مصر، ومن استولى عليها فقد ضمن النصر؛ لما لموقعها من الخطر. وقد عني بمن ذكر من الجنود: جيش الأجنبي المحتل.

^٨ التقاء الأبيض والأحمر: أي التقاء البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بواسطة قناة السويس، وقد سبق المؤلف فنظم هذا المعنى شعراً في همزيته المشهورة قال:

جمع الزاخرين كرهاً فلا كا نا ولا كان ذلك الالتقاء
أحمر عند أبيض للبرايا حصة القطر منهما سوداء

الرزخ: قطعة أرض بين بحرين. وقيصر: هو يوليوس قيصر الروماني الذي احرز مجداً عظيماً بانتصاراته وإصلاحاته. والإسكندر: هو إسكندر المقدوني الملقب عند العرب بذئ القرنين، وهو مؤسس مدينة الإسكندرية المنسوبة إليه ويعد من أعظم الفاتحين. كثيرون حاولوا نقض برزخ السويس من أيام الفراعنة — ولو كان فتح القناة لم يتم إلا على عهد إسماعيل في جمع من التيجان كما مر بك وصف الاحتفال في المقدمة.

ماذا على هذه الرمال،^٩ من لَمَحَاتِ جِلَالٍ وَجَمَالٍ؟ ارْجِعَا الْقَهْقَرَى بِالْخَيَالِ، إِلَى الْعَصْرِ الْخَالِ؛ وَأَعْرَضَا فِي حَدَاثَتِهَا الْأَجْيَالِ؛ تَرِيَا عَلَى هَذَا الْمَكَانِ وَجُوهَا تَتَمَثَّلُ، وَرِكَابًا تَتَنَقَّلُ، وَتَرِيَا النُّبُوَّةَ تَتَهَلَّلُ، وَالْآيَاتِ تَتَنَزَّلُ، وَتَرِيَا الْمَلِكَ^{١٠} يَتَرَجَّلُ، حَتَّى كَأَنَّكُمَا بِالزَّمَانِ الْأَوَّلِ؛ فَهِيَ هُنَا ضَعُ النَّبُوَّةَ الْمَهْدِ، وَابْتَدَأَ بِهَا الْعَهْدِ. فَأَقْبَلَ صَاحِبُ الْمَقَامِ، وَمُحَطَّمُ الْأَصْنَامِ، وَبِنَاءُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، خَلِيلُ نَبِيِّ الْجِلَالِ وَالْإِكْرَامِ. هَاجَرَ إِلَى مِصْرَ أَكْرَمَ مَنْ هَاجَرَ، ثُمَّ انْقَلَبَ مِنْهَا بِأُمَّ الْعَرَبِ «هَاجَرَ».

وَمِنْ هَذِهِ الثَّنِيَّاتِ طَلَعَ يُوسُفُ يَرْسُفُ فِي الْقَيْدِ، وَهُوَ لِلسَّيَارَةِ^{١١} يَسِيرُ مِنْ كَيْدٍ إِلَى كَيْدٍ؛ قَلْبٌ جَرَحَتْهُ الْإِخْوَةُ، وَجَنْبٌ قَرَحَتْهُ النَّسُوءَةُ؛ فَيَا لَكَ يُوسُفُ مِنْ أَسُوءَةٍ؛ عَزُّ بَعْدَ هُونٍ، وَدَوْلَةٌ بَعْدَ الْمَنْزَلِ الدُّونِ، وَشَتُونَ أَقْدَارِ وَشَجُونَ، وَسَهُولُ حَيَاةٍ وَحَزُونَ، وَسُجُوفُ الْقُصُورِ بَعْدَ السَّجُونَ؛ إِلَى سُجُودِ الشَّمْسِ لَكَ وَالْقَمَرِ، وَالْكَوَاكِبِ الْأُخْرَى.

وَالِى هَذَا الْفَضَاءِ خَرَجَ مُوسَى حِينَ زَيْلِ زَوْيَلِهِ^{١٢} وَطَلَبُهُ قَتِيلُهُ، وَزَيَّنَ لَهُ الْفِرَارَ خَلِيلُهُ؛ فَحَوَتْهُ هَذِهِ الرَّمَالُ فَإِذَا الْأَمْنُ سَبِيلُهُ، وَالْيُمْنُ دَلِيلُهُ، وَالسَّلَامَةُ زَامَلَتَهُ^{١٣} وَالسَّلْمُ زَمِيلُهُ؛ وَلَوْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى غِيْبِهِ، لِلْمَسِّ النَّبُوَّةَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَجَبِيْبِهِ، إِلَى أَنْ رُفِعَ لَهُ الْمَنَارُ، وَاسْتَحَلَّ بِالنُّورِ وَأَقْتَبَسَ مِنَ النَّارِ، وَقِيلَ لَهُ كُنْ مِنَ الْأَحْرَارِ الْأَحْبَارِ، وَارْجِعْ فَسَلَّطَ الْحَقُّ عَلَى فِرُونَ الْجَبَّارِ، فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ اقْتَحَمَ عَلَى الْفَرْدِ جَبْرُوتَهُ، وَهَتَكَ عَلَى الْمُسْتَبِدِّ طَاغُوتَهُ، وَحَطَّمَ^{١٤} الْمَتَالَةَ وَحَطَّمَ عِظْمُوتَهُ؛ مَاءُ الْحَقِّ عَلَى لُطْفِهِ، فَارِ بِنَارِ الْبَاطِلِ عَلَى عُنفِهِ؛ ظَهَرَ الْعَدْلُ عَلَى الْحَيْفِ. وَكَسَرَتْ الْعِصَا السَّيْفِ.

وَعَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مَشَتْ السَّمَاءُ الطَّاهِرَةُ، وَالنَّيِّرَةُ الزَّاهِرَةُ، وَالْآيَةُ الْمَتَظَاهِرَةُ؛ أُمَّ الْكَلِمَةِ،^{١٥} وَطَرِيدَةُ الظُّلْمَةِ؛ سَرَحُوا فِي عَرَضِهَا؛ يُوسُفُ حَادِيْهَا، وَجَبْرِيلُ هَادِيْهَا، وَالْقُدُسُ

^٩ أخذ المؤلف يروي لولديه تاريخ تلك البقاع، وهو درس تاريخي جميل بليغ جمع إلى سرد الوقائع والحوادث شيئاً كثيراً من فلسفة التاريخ وعبر الأيام.

^{١٠} الملك: الملائكة.

^{١١} السيارة: القافلة.

^{١٢} زيل زويله: أي زال جانبه نزعاً وفرقاً.

^{١٣} زاملته: رافقته. وأصل «زامله» عادله على البعير في المحمل: أي كان هو في جانب وصاحبه في آخر.

^{١٤} خطمه: ضربه على أنفه.

^{١٥} السيدة مريم.

ناديها، والطَّهارةُ أرجاءُ واديها؛ وعلى ذراعها مصباحُ الحكمة، وجناحُ الرحمة، والإصباحُ من الظُّلْمَة؛ حتى هبطتُ به أكرمَ الأديم، فنشأ بين الحكيم والعليم. وترعرع حيث ترعرع بالأمس الكليم.

فيا لك من دار، لَعَبْتُ على عَرَصَاتِهَا الأقدار، ناويتِ موسى، القريب؛ وآويتِ عيسى، الغريب، نَبُوتِ النَّبِيِّ، وَحَبُوتِ الأَمْنِ عيسى وهو صبيِّي، عُدْرُك لا تُنْضِي غليهِ المَطْي، فإنما غَضِبْتُ لِابْنِكَ القِبْطِيِّ.^{١٦}

ثم انظُرًا تريا إبلاً صعباً، وخيلاً عراباً،^{١٧} وتريا الرُّعَاة^{١٨} انقَضُوا على الوادي ذئاباً، فأخافوا القرى الأمنة، وأخرجوا من مصر الفراعنة، واستبدوا بالملك فيها آونة. وتريا الوحوش الضارية، والجوارح الكاسرة، يقودها شر الأكاسرة،^{١٩} ملأت هذه الفِجَاج،^{٢٠} وكأنها حَرَجاتُ^{٢١} السَّاج، أو حركاتُ الأمواج؛ ثم تدفقتُ تكتسحُ الدِّيار، باغيةَ السِّيفِ طاغيةَ النَّارِ، تَدُكُ الهياكل والمعائل، وتهتكُ العقائد والعقائل. وتريا الإسكندرَ الكريم، قد لَمَعَ كالصارم من هذا الصريم^{٢٢} يحملُ الحملات النجائب. ويفتح بالكتِّب وبالكتائب.

وتريا ابنَ العاصِ والصَّحابة، مَرُّوا من هذه الأرجاء مَرَّ السَّحَابَةِ؛ يفتحونَ للحقِّ، ويفتكون بالرقِّ؛ حتى أخلُّوا القصورَ من القياصرةَ، وأراحوا مصرَ الصَّابِرة، من صَلفِ

^{١٦} إشارة إلى القبطي الذي قتله موسى وغضبت له مصر فلم تقبل فيه من عذر.

^{١٧} العراب: الكرائم.

^{١٨} الهكسوس أو الملوك الرعاة.

^{١٩} هو قمبيز أحد ملوك الفرس حكم من ٥٢٩ إلى ٥٢٢ قبل المسيح، وهو ابن قورش: فتح مصر واستبد بأهلها، وقد ذكره المؤلف في قصيدته المؤتمر فقال:

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيز ولا طنطننت بك الأنبياء
دارت الدائرات فيك ونالت هذه الأمة اليد العراء

^{٢٠} مفردهما فج: وهو الطريق بين جبلين.

^{٢١} حرجات: جمع حرجة: وهي مجتمع الشجر. والساج: شجر يعظم جداً وخشبه أسود.

^{٢٢} الصارم: السيف القاطع. والصريم: الرمل.

الجبابة. وترى صلاح الدين يخفى كالبدر ويبدو، ويروح كالغيث ويغدو؛ بُعوثُ بلا
 عدد، ومددٌ إثر مدد، وذخائرٌ وعدد، وبشرى كلُّ يومٍ بفتوحٍ جُدُد.
 وترياً «نابليون» قد ركبَ طيشه، وأركبَ العزَّز^{٢٣} جيشه. وترياً إبراهيم بن عليٍّ
 مشهورَ الجُزَّاز،^{٢٤} موفورَ الهاز، مَلَكَ سوريا وضَبَطَ الحِجَاز.
 وترى إسماعيلَ بعثَ الحاشرين، وحشدَ الحافرين، وقربَ المسافة للمسافرين؛ غيَّرَ
 وجهَ السفر، فقليل: بلغَ غايةَ الظَّفَر، وقيل: وقع الحافرُ فيما حَفَرَ.
 ثم انظروا اليوم تريا القناة في يد القوم إن آمنوا ركزوها،^{٢٥} وإن خافوا هزوها.

^{٢٣} الخطر.

^{٢٤} السيف.

^{٢٥} ركز الرمح: غرسه في الأرض، وفي القناة هنا تورية، إذ تحتل معنى الرمح وقناة السويس.

الذِّكْرَى

[هذه قصيدة من الشعر المنثور تغزل فيها المؤلف بالحرية، وأهداها إلى روح صديقه المرحوم مصطفى كامل باشا بمناسبة ذكرى وفاته.]

قلْ لا أعْرِفُ الرَّقَّ، وتقيّد بالواجب وتقيّد بالحقّ؛ الحرية وما هيّه؟ «الحُمَيْرَاءُ»^١ الغالية،
فِتْنَةُ القرون الخالية، وطلبَةُ النفوسِ العالية؛ غِذاءُ الطَّبَّائِعِ، ومادَّةُ الشَّرَائِعِ، وأمُّ الوسائِلِ
والذَّرَائِعِ؛ بنتُ العلمِ إذا عمَّ، والخلقِ إذا تمَّ، وربيبَةُ الصبرِ الجميلِ والعملِ الجَمِّ؛ الجهلُ
يُنْذِرُها،^٢ والصغائرُ تُفْسِدُها، والفرقةُ تُبعِدُها؛ تكبيرَةُ الوجودِ، في أذنِ المولودِ؛ وتحيةُ الدُّنيا
له إذا وصل، وصيحةُ الحياةِ به إذا نَصَلَ؛^٣ هاتِفٌ مِنَ السَّمَاءِ يقولُ له: يا ابنَ آدمَ؛ حَسْبُكَ
من الأسماءِ عبدُ الله وسيدُ العالمِ،^٤ وهي القابلةُ التي تستقبله، ثم تسرُّه^٥ وتُسْرِبُهُ،^٦ وهي

^١ الحُمَيْرَاءُ: يريد أنها حمراء كالدم، وصغرُها للتعظيم. وقد تكون إشارة إلى الروح التي يعبرون عنها بسرّيات الدم في الجسم.

^٢ يَنْذِرُها: أي يذنبها حياة.

^٣ نَصَلَ: السهم خرج نصله والمراد خروج الولد من بطن أمه كخروج السيف من غمده.

^٤ عبد الله: معناه أن الإنسان وهو في الدنيا لا يكون عبدًا إلا لله، وهو سيد العالم المنتفع بكل شيء فيه.

^٥ تسره: تقطع سرره. والسر: ما تقطعه القابلة من سرّة الصبي، ولا تقل: سرته؛ لأن السرّة لا تقطع، وإنما هي الموضع الذي قطع منه السر.

^٦ تسربله: تلبسه السربال وهو القميص.

المهدُ والتميمة،^٧ والمُرْضِعُ الكريمة، المنجبة كـ«حليمة».^٨ ألبانها حياة، وأحضانها جنّات. وأنفاسها طيبات. العزيزُ من وُلدَ بين سَحْرِها^٩ ونَحْرِها^{١٠} وتعلق بصدْرِها، ولعبَ على كَتِفِها وجِجْرها، وترعرعَ بين خَدْرِها وسِتْرِها.. ضجِعةُ موسى في التابوت،^{١١} وجَاوَرَتْه في دار الطاغوت،^{١٢} والعصا^{١٣} التي توكأ عليها، والنَّارُ التي عشاَ إليها،^{١٤} جبلةُ المسيح، السَّيدِ السَّميح، وإنجِيلُه، الذي حاربُه جيْلُه،^{١٥} وسَبِيلُه، الذي جانبُه قَبيلُه، طِينَةُ^{١٦} محمدٍ

^٧ التميمة: عوذة تعلق على الإنسان.

^٨ حليمة هي مرضع رسول الله، وهي من قبيلة بني سعد.

^٩ السحر: الرثية، والمراد ما فوقها.

^{١٠} النحر: موضع القلادة من الصدر.

^{١١} ضجِعة موسى في التابوت: حكاية التابوت أن المنجمين أخبروا فرعون مصر أن مولودًا من بني إسرائيل قد أظله زمانه الذي يولد فيه يسلبه ملكه ويخرجه من أرضه ويبدل دينه، فأمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان. ولما قيل له: أفنيت الناس وقطعت النسل وهم خيالك وعمالك: أمر أن يقتل الغلمان عامًا ويستحيوا عامًا فولد هارون في السنة التي يستحيا فيها الغلمان، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون، فحزنت أمه، فأوحى الله إليها: أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم — وهو النيل — ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. فلما وضعته أرضعته ثم دعت نجارًا فجعل له تابوتًا وجعلته فيه وألقته في اليم، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جوارى أسية امرأته يغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى أسية، فأحبته وحالت بينه وبين الذبح، فلما بلغ أشده وأصبح في المدينة خائفًا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين. ولما توجه تلقاء مدين قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. ثم كانت رسالته، فالحرية التي اضطجعت مع موسى في التابوت وجاورته في دار الطاغوت، هي التي اعتمد عليها في إنقاذ قومه من ظلم فرعون.

^{١٢} الطاغوت: الكفر.

^{١٣} العصا: هي عصا موسى، وهي معجزته التي كانت إذا ألقاها انقلبت حية تسعى، وأراد أن يثبت لفرعون مصر أنه مرسل من عند الله لتحرير أمته بني إسرائيل من الرق والعبودية، فعصا موسى. هي عصا الحرية، لأن الله حرر أمته على يده.

^{١٤} عشاها: قصدها ليلاً يوم سار بأهله، فأنس من جانب الطور نارًا، فكانت رسالته بذلك الوادي المقدس إلى فرعون لينقذ بني إسرائيل من رق الفراعنة إلى بحبوحة الحرية.

^{١٥} جبيلة: قومه، وقد أبوا أن يتبعوه إلا قليلاً منهم وهم الحواريون.

^{١٦} طينة محمد عنه نفسه.. الخ، أي أن محمدًا خلق من الحرية وقبل أن يخلق كان سارحًا في فضائها، ولما بعث محمد دعا الناس جميعًا إلى الحرية.

عن نفسه، عن قومِه، عن أمسه، عن يومه، أنسابٌ عالية، وأحسابٌ زاكية، وملوكٌ بادية، لم يدنهم طاغية، وهي رُوحُ بيانِه، ومُنحدرُ السُّورِ على لسانِه، الحرِّيَّة، عقدُ الملك، وعهدُ الملك، وسكانُ الفُلك، يدُ القلم، على الأمم، ومنحةُ الفكر، ونفحةُ الشعر وقصيدةُ الدهر، لا يُستعظَمُ فيها قربان، ولو كان الخليفةُ عثمانُ بن عفان، جنينٌ يحملُ به في أيامِ المحنة، وتحتَ أفياء^{١٧} الفتنة، وحينَ البغي سيرةُ السَّامة^{١٨}، والعدوان وتيرةُ العامَّة، وعندما تناهى غفلةُ السواد، وتفاقمَ عَبتُ القوَّاد، وبين الدَّمِ المَطْلُولِ، والسيفِ المسلولِ، والنظمِ المحلولِ، وكذلك كان الرُّسلُ يولدون عندَ عمومِ الجهالة، ويُبْعَثون حينَ طُمومِ الضلالة؛ فإذا كَمَلَتْ مدَّتُه. وطلعتْ غُرَّتُه، وسطعتْ أُسْرَتُه، وصحَّتْ في المهدِ إمْرَتُه، بدلتِ الحالَ غيرَ الحال، وجاءَ رجالٌ بعدَ الرِّجال؛ دينٌ ينفسُحُ للصادقِ والمنافقِ، وسوقٌ يتسعُ للكاسدِ والنافقِ،^{١٩} مولودٌ حملُه قرون، ووضعُه سنون، وحدائثُه أشغالٌ وشئون، وأهوالٌ وشجون، فرجمَ الله كلَّ من وطأ ومهد، وهياً وتعهد، ثم استشهدَ قبلَ أن يشهد.

إذا أحرزتِ الأممُ الحرِّيَّةَ أتتِ السيادةُ من نفسها، وسعتِ الإمارةُ على رأسها، وُبَيِّتِ الحضارةُ من أسها؛ فهي الأمرُ الوازع، القليلُ المنازع، النبيلُ المشارِبُ والمنازع؛ الذي لا يتخذُ شيعة، ولا صنيعة، ولا يزدهي بخديعة؛ خازنٌ ساهر، وحاسبٌ ماهر؛ دانقُ الجماعةِ بذمةٍ منه وأمان، ويدرهمهم في جززه درهمان.

«فيا ليلي»^{٢٠} ماذا من أتراب، واريَّتِ التراب؟ وأخدان، أسلمتِ للديان؟ عمَّالٌ للحقِّ عمَّار، كانوا الشُّموسُ والأقمار، فأصبحوا على أفواه الرُّكَّابِ والسُّمار؛ وأين قيسك المعول؟ ومجنونك الأوَّل؟ حائطُ الحقِّ الأطول، وفارسُ الحقيقةِ الأجول؛ أين مصطفى؟ زينُ الشباب، وريحانُ الأحباب. وأوَّلُ من دَفَعِ الباب، وأبرزَ النَّاب، وزارَ دون الغاب؟...

^{١٧} الأفياء: هي الظلال.

^{١٨} السامة: الخاصة.

^{١٩} النافق: الرائج.

^{٢٠} ينادي الحرية باسم ليلي، ويسألها عن «قيسها» و«مجنونها».

الشَّمْسُ

سَلِ الشَّمْسَ مَنْ رَفَعَهَا نَارًا، وَنَصَبَهَا^١ مَنْارًا، وَضَرَبَهَا دِينَارًا^٢ وَمَنْ عَلَّقَهَا فِي الْجَوِّ سَاعَةً^٣،
يَدِبُّ عَقْرِبَاهَا عَلَى يَوْمِ السَّاعَةِ؟^٤ وَمَنْ ذَا الَّذِي آتَاهَا مِعْرَاجَهَا،^٥ وَهَدَاهَا أُدْرَاجَهَا^٦، وَأَحْلَاهَا
أَبْرَاجَهَا، وَنَقَلَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا سِرَاجَهَا؟ وَمَنْ الَّذِي وَكَّلَهَا بِهَذِهِ الْكُرَّةِ، وَسَخَّلَهَا بِهَذِهِ
الدَّسْكَرَةِ^٧، حَتَّى اتَّخَذَتْهَا مَجْرًا ذَيْلَهَا^٨ وَتَصَرَّفَتْ بِنَهَارِهَا وَلَيْلِهَا؛ تَنْهَضُ فِي السَّمَاءِ
مُسْتَمْلِحَةً، وَتَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مُصْلِحَةً، وَتَغْدُو مَنْجِحَةً^٩، وَتَرْوِحُ مُرْجِحَةً^{١٠}؛ كُلُّ إِيَاةٍ^{١١}،
حَيَاةٍ أَوْ ائْتِنَافٍ^{١٢}، حَيَاةٍ، وَكُلُّ شُعَاعٍ صَانِعٍ صَنَاعٍ، وَكُلُّ رَائِدٍ، مَالٌ فَائِدٍ^{١٣}، وَخَيْرٌ رَائِدٍ؛

^١ نصبها: أقامها.

^٢ أي كالدينار صفرة واستدارة.

^٣ أي كالساعة التي يعرف بها الوقت.

^٤ عقربا الشمس: هما الليل والنهار تشبيهاً لهما بعقربي الساعة.

^٥ المعراج: السلم.

^٦ جمع درج: وهو الطريق.

^٧ الدسكرة: القرية العظيمة والمراد بها هنا: الدنيا.

^٨ المراد بالذيل: الأشعة، أي أنها اتخذت الدنيا مكاناً تجر عليه أشعتها.

^٩ غدو الشمس: إشراقها.

^{١٠} الرواح: الغروب. ومرجحة: أي تجزل العطاء.

^{١١} الإيافة، والشعاع، والرائد: كلها بمعنى واحد.

^{١٢} ائتناف: أي تجديد.

^{١٣} المال الفائد: الثابت على الزيادة والربح.

هِيَ الْمَصْبَاحُ الْأَنْوَرُ، وَالْمِغْزَلُ الْأَدْوَرُ،^{١٤} وَالْمِرْجَلُ الْأَزْهَرُ،^{١٥} وَالصَّبَاغُ الْأَمْهَرُ،^{١٦} وَالرَّأْوُوقُ^{١٧} الْأَطْهَرُ، وَالطَّبِيبُ الْأَقْدَرُ الْأَشْهَرُ.

الزَّمَانُ هِيَ سَبَبُ حَصُولِهِ،^{١٨} وَمُنْشَعَبُ^{١٩} فِرْوَعِهِ وَأَصُولِهِ، وَكِتَابُهُ بِأَجْزَائِهِ وَفَصُولِهِ؛ وَلِدَا عَلَى ظَهْرِهَا، وَلَعَبَ عَلَى حِجْرِهَا، وَشَابَ فِي طَاعَتِهَا وَبِرِّهَا؛ لَوْلَاهَا مَا اتَّسَقَتْ^{٢٠} أَيَامُهُ، وَلَا انْتَضَمَتْ شَهْوَرُهُ، وَأَعْوَامُهُ، وَلَا اخْتَلَفَ نَوْرُهُ وَظِلَامُهُ؛ ذَهَبُ الْأَصِيلِ مِنْ مَنَاجِمِهَا،^{٢١} وَالشَّفَقُ يَسِيلُ مِنْ مَحَاجِمِهَا؛^{٢٢} تَحَطَّمَتِ الْقُرُونُ عَلَى قَرْزِنِهَا،^{٢٣} وَلَمْ يَعْغُلْ تَطَاوُلُ السَّنِينَ بِسَنِّهَا،^{٢٤} وَلَمْ يَمْحُ التَّقَادِمُ^{٢٥} لِحَاةَ حَسْنِهَا؛ أُتِّتْ دُونَهَا الْأَيَّامُ وَهِيَ كَعَابِ،^{٢٦} فِي غَرْبِ الشَّبَابِ،^{٢٧} تَصْبِيحُ تَبَرُّزٍ مِنْ حِجَابِ، وَتُمْسِيَّتُهَا تَتَوَارَى بِحِجَابِ؛ طَالَمَا رَدَّتْ الْغُرْبَانَ حَمَائِمَ،^{٢٨} وَنَسَجَتْ الثَّلَاثَ الْعَمَائِمَ،^{٢٩} وَغَزَلَتْ الْأَكْفَانَ، لِحْيِي فَانَ، وَطَلَعَتْ عَلَى عَرَبٍ^{٣٠} وَغَرَبَتْ عَلَى

^{١٤} الأدور: شديد الدوران، وتشبيه الشمس بالمغزل لأنها تفتل الأشعة وترسلها بسرعة.

^{١٥} المرجل: القدر. والأزهر: النير المشرق، وشبه الشمس بالمرجل بجامع الإنضاج في كل.

^{١٦} تصغ النبات فتجعله أخضر، وتحبو الحيوان ألوانه المختلفة، ثم تعطي بأشعتها كل شيء لوناً.

^{١٧} الراووق: المصفاة، والغرض أنها مطهرة.

^{١٨} الليل والنهار والفصل والأربعة: هي مظهر الزمان، ولولا الشمس ما كانت ولا كان الزمان.

^{١٩} المشعب: المفرق.

^{٢٠} اتسقت: أي انتظمت.

^{٢١} المنجم: المعدن، والمؤلف يشبه الأصيل بالذهب بجامع الصفرة في كل.

^{٢٢} المحجم: مكان الحجامه، وهي أخذ الدم من الجسم، والمؤلف يشبه الشفق بالنسبة إلى الشمس بالدم

بالنسبة إلى شخص يحتجم بجامع الحمرة في كل.

^{٢٣} قرن الشمس: أعلاها، وقيل: أول ما يبدو من أشعتها.

^{٢٤} السن: العمر، والمعنى أن طول الزمن لم يؤثر فيها شيئاً.

^{٢٥} التقادم: القدم.

^{٢٦} كعبت الجارية: نهد ثديها، فهي كعاب.

^{٢٧} غرب الشباب: حدته ونشاطه.

^{٢٨} أي تحليل الشباب شيئاً.

^{٢٩} العمام الثلاث: كناية عن شعر الشباب الأسود واختلاط السواد بالبياض في الأسمط والبياض في

الشيوخ.

^{٣٠} العزب: الذي لم يتزوج.

الشَّمْسُ

بان،^{٣١} قامت على غير قَدَم، حتى طال عليها القَدَم، وقيل: ما لهذه عَدَم، كلا لتخرنَّ
عمادًا،^{٣٢} ولتذهبنَّ رمادا، وليبعثنَّ الله جمادا.^{٣٣}

^{٣١} الباني: المتزوج.

^{٣٢} لتسقطن.

^{٣٣} أي يبعث على أثرها من العظام أحياء. ويشير بهذا إلى أن الشمس تبقى ولا تفتنى إلا قبيل الساعة، حتى إذا ما فنيت نشرت الخلائق بعد ذلك، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

الموت

راكب الأعواد^١ إلى أين؟ يا بُعدَ غايةِ البين،^٢ ويا قُربَ الميلادِ من الحين؛^٣ وَيَحَ قَوْمِكَ! هل انتبهوا من نومك،^٤ ولمسوا عبْرَةَ الدهرِ بيومِكَ؟^٥ حَمْلُوكَ على حَدْبَاءِ،^٦ يَقْعُدُ الأبنَاءُ منها مَقْعَدَ الآبَاءِ، هي أعدلُ — إذْ تَضَعُ^٧ — من حَوَاءِ، تُلْقِي حَمْلَهَا فَإِذَا المَلَكُ والسُّوقَةُ سواءُ؛ حَقِيبَةُ النِّيَّةِ^٨ كلُّ يومٍ في ركابِ، من مناكِبِ^٩ ورقابِ، تَحْمِلُ الشَّيْبَ والشَّبَابِ، إلى رَحَى البِلَى في اليبابِ،^{١٠} فيدورُ عليهم الدُّولابُ،^{١١} فإذا هم حَصَى وتُرَابُ؛ ومن عَجَبٍ يعدلونَهَا بك إلى السَّبِيلِ،^{١٢} وما هي لَعَمْرُ أبيكَ إلا الدَّلِيلِ، في موكِبٍ غيرِ نِي صوتِ، أَضْفَى^{١٣} عليه

١ الأعواد: كناية عن النعش، والخطاب للميت.

٢ البين: الفراق، وهذه الجملة إشارة على بعد الزمن ما بين الموت والنشور.

٣ الحين: الموت، وهنا إشارة إلى قصر الحياة.

٤ أي هل اتعظوا به.

٥ العبرة: العظة. ويومك: أي يوم موتك.

٦ نعش.

٧ أي تلد، والمراد إذ تسلم الأموات إلى القبور.

٨ كناية عن النعش.

٩ المناكب: الأكتاف.

١٠ اليباب: القفر والخراب. والمراد برحى البلى هنا: القبر، إذ فيه يتم الفناء.

١١ الدولاب: الآلة الدائرة، والمراد بها هنا: دولاب الفناء.

١٢ يسيرونها كيفما شاءوا، مع أنها هي التي تقودهم إلى طريق الحق.

١٣ أضفى: أفاض.

جلالُه الموت؛ أنت فيه جِدٌ في لَعِبٍ، وَصِدْقٌ في كِذْبٍ؛^{١٤} لك فيه عُلُوُّ المتبوعِ في التَّبَعِ،^{١٥} واللواءُ في الخميس^{١٦} والخطيبُ في الجُمعِ، بَيِّدَ أن ذلك لا يَمْنَعُكَ من الأرض،^{١٧} ولا يَنْفَعُكَ يومَ العَرَضِ،^{١٨} لستَ واللهِ صَاحِبَ الآخِرَةِ،^{١٩} وإن كنتَ صَاحِبَ الجِنَازَةِ الفَاخِرَةِ، حتى تُشَيِّعَ بَيْتِيْمٍ مُضَيِّعٍ، أو بَائِسٍ، من ورائك يائِسٍ، أو وَطَنٍ يَبْكِيكَ عَقْلَاوَهُ، وَيَضُجُّ عَلَيْكَ فَضْلَاوَهُ، ويمشي بنورك أبنائِهِ، وَيُضِيءُ حُفْرَتَكَ ثَنَاوَهُ، انظر — رَحِمَكَ اللهُ — هل ترى غَيْرَ بَاكِ كضَاحِكِ المَزْنِ،^{٢٠} ليس وراءَ دَمْعِهِ حُزْنٌ؟ أو وارِثٍ مَشغولٍ بما مَلَكَ، أو فَضولِيٍّ، يسألُ كم تَرَكَ؟ زُحْرُفُ جِنَازَةٍ، وَيَنْفُضُ دُونَ المَفَازَةِ،^{٢١} وَضَجَّةُ الخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا وَزورِهَا، وَأخِرَ عَهْدِكَ بِبَاطِلِ الحَيَاةِ وَغُرُورِهَا، ولو أَطَلَّتْ عَلَيَّ فَانِ طَالَمَا حَمَلْتُكَ،^{٢٢} وَبَاطِلِ بَالِئِ الأَمْسِ سَعْلَكَ، وَقَلِيلِ مَتَاعِ قَتْلِكَ، ثم لَمْ يَبْقَ لَكَ: لم تر غيرَ حُلْمٍ بَترٍ،^{٢٣} وَمَلْعَبِ سِترٍ، وَمَاءِ عِبرٍ،^{٢٤} وَظِلِّ هُجْرٍ، وَمَالٍ خُسْرٍ، وَوارِثٍ مُنْشَمِرٍ؛^{٢٥} يسيرون بك إلى المُنْفَرَقِ،^{٢٦} وَسِوَاءِ

^{١٤} الآخرة جد والدنيا لعب، وهي صدق والدنيا كذب. فهو بينهم ميت في وسط أحياء، فوصفه بأوصاف الآخرة كما وصفهم بأوصاف الدنيا.

^{١٥} التابعين.

^{١٦} اللواء: العلم. والخميس: الجيش.

^{١٧} الأرض: القبر.

^{١٨} القيامة.

^{١٩} أي صاحب الجزاء الحسن فيها. والمراد بهذه الجملة وما يليها: أنك لن تنال ما ترجوه من نعيم الله حتى تشهد لك دموع اليتامى من بعدك، وبكاء الياستين على قبرك، وعبرات الفضلاء يوم مصرعك، وأحزان الوطن لفراقك.

^{٢٠} المزن: السحاب الغزير الماء، والغرض أنك لا تجد حولك إلا دمعا كذبا وحزنا كله رياء.

^{٢١} المفازة: الفلاة المهلكة لعدم وجود الماء، والمراد بها هنا: موضع المقابر. يقول: كل ما خرجت به من الدنيا موكب مزين ينفذ قبل أن يواروك التراب.

^{٢٢} جواب «لو» قوله «لم تر غير حلم بتر».

^{٢٣} قطع.

^{٢٤} عبر الماء: قطع من شاطئه إلى شاطئه.

^{٢٥} انشمر: مر جادا أو مختالا.

^{٢٦} مكان الفصل بين الدنيا والآخرة، والمراد بهذا وما بعده: أوصاف للمقابر عامة، أما وصف القبر خاصة فسيأتيك بعد قليل.

الطُّرُق؛ ويأخذون بك ناحية الحق، وسبيل الخلق، وقصبه السَّبْق؛ هُوَّة البلى، وغمرة الفلا؛^{٢٧} والمعاد، ومدينة عاد، وعَرَصاتُ المعاد،^{٢٨} والبلد الذي ابْيَضَّت فيه الأكباد،^{٢٩} وحُفَّت بظاهرة الأحقاد، وصحا الفؤاد، عن الأموال والأولاد؛ كلُّ مكانٍ فيه مَضَج، وكلُّ زمانٍ فيه رُقاد،^{٣٠} ثم إذا أنتَ ببيت^{٣١} لا ينزله إلا مَيَّت؛ اختطه الباطلُ وبناءه، لنزول الحقِّ وسُكناه؛^{٣٢} كل حَجَرٍ فيه من جدار، مشاعٌ^{٣٣} بين الدَّارِ والدَّارِ؛ حتى إذا أُطرق^{٣٤} الجَمْع، وأُطلق الدَّمْع، وفَرِقَ البصرُ والسَّمْع؛^{٣٥} قُذِفَ ما في السَّرير،^{٣٦} فتلقَّفه الحَفير،^{٣٧} ووَكِلتَ لِمُنْكَرٍ ونكير، لا بل لرحمة الملك القدير.

فيا عَبْدَ المال، أَضْرَكَ أَنَّكَ عُنْتَقْت؟^{٣٨} ويا أُسَيْرَ الآمال، أما سَرَّكَ أَنَّكَ أُطْلِقْت؟^{٣٩} ويا كَثِيرَ التَّحَوُّلِ والتَّغَلُّبِ، قَلْبٌ إِنْ اسْتَطَعْتَ جَنَّبِيكَ؛ ويا مُدِيمَ التَّطَلُّعِ والتَّطَلُّبِ، اطلب من البلى نورَ عينيك؛ ويا مَرْحُوحَ الصِّمِّ^{٤٠} الصِّلابِ، زَحْرُحُ عَن رَأْسِكَ هَذِهِ الظُّلْمَةُ؛ ويا فَاتِحَ المِغَالِقِ الصَّعَابِ، افْتَحْ لَكَ اليَوْمَ ثُلْمَةً.^{٤١} كَأَنِّي وَاللَّهِ بِالذَّهْرِ وَقَدْ خَلَا، وبالمحزون وَقَدْ

^{٢٧} الفلا: الأرض القضاء الموحشة. والغمرة: المزدحم، والمراد أن المقابر هوة يكون فيه الإفناء وأرض يزدحم فيها الأموات.

^{٢٨} العرصات: الفضاء بين الدور، والمعاد: موضع العود والنشور.

^{٢٩} سواد الكبد: كناية عن الحقد والحسد، وبياضه: طهره من كل هذه الأرجاس.

^{٣٠} يقضي الميت مدته فيه كلها في رقاد طويل.

^{٣١} القبر.

^{٣٢} الإنسان الموجود في الدنيا دار الحق والإرشاد.

^{٣٣} مشاع: مشترك.

^{٣٤} أطرق برأسه: أماله إلى الأرض حزناً.

^{٣٥} فرق: فزع وخاف.

^{٣٦} السرير: النعش.

^{٣٧} الحفير: القبر.

^{٣٨} الاستفهام هنا إنكاري.

^{٣٩} الاستفهام هنا تقرير يقرر ما بعده.

^{٤٠} الصم: الحجارة الصماء.

^{٤١} ثلثة فتحة، وكل ما تقدم الغرض منه إظهار نهاية عجز الإنسان بعد الموت، وكأنما يقول (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه).

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

سَلا،^{٤٢} وكأني بك وقد فرغَ منك الثُّرى، وقامتُ عنكَ الرَّحَى،^{٤٣} فإذا أنتِ عِظَامٌ، كما
اخْتَرَطَ العُنُقُودُ؛^{٤٤} ثم إذا رَغَامٌ^{٤٥} جَفَّ المَاءُ وَذَهَبَ العُودُ.

^{٤٢} سلا: أي تعزى وترك.

^{٤٣} أي لم يبق منك ما يصلح للطحن كناية عن تماما لفناء.

^{٤٤} اختلط الرجل العنقود: وضعه في فيه وأخرج عوده عارياً.

^{٤٥} الرغام: التراب.

دُعَاءُ الصَّلَاةِ الْعَامَّةِ

[في سنة ١٩١٩ هبت البلاد في ثورة عامة تطلب استقلالها المغصوب، وأوفدت لذلك وفدًا ليرفع هذا الصوت في مؤتمر «فرساي»، فأُوصد الباب في وجهه، واضطر إلى أن يلبث في فرنسا سنة كاملة بين تعب ناصب، وجهاد طويل؛ ثم تلقى دعوة إلى المفاوضة مع الإنكليز في عاصمة بلادهم؛ يومئذ وضع المؤلف هذا الدعاء البليغ، فأجمع الناس من كل دين على أن يتوسلوا إلى الله أن يُعزَّز به نواب البلاد. وعقب صلاة الجمعة من يوم ١٧ رمضان سنة ١٣٣٨ — ٤ يونيو سنة ١٩٢٠ — ارتفعت أصوات المسلمين من كل مسجد في كل بلد من بلاد القطر تهتف بهذا الدعاء الحار، وملء القلوب أمل، وملء الأنفاس توسل ورجاء.]

اللهم قاهرَ القياصر، ومُذللَّ الجبابر، وناصرَ مَنْ لا له ناصر؛ ركنَ الضعيف ومائدةَ قُواه، ومُلهمَ القويِّ حَشِيَّتَهُ وتَقْواه، وَمَنْ لا يحكم بين عبادِه سواه؛ هذه كِنَانَتُكَ فَرِّعْ^١ إليك بَنُوها، وَهَرِّعْ إليك ساكنوها؛ هلالاً وصليباً،^٢ بعيداً وقريباً، شُبَّاناً وشِيباً، نجيباً ونجيباً؛^٣ مُسْتَبِقِينَ^٤ كَنَاشِ سَكِ المَكْرَمَةِ، التي رَفَعْتَهَا لِقَدْسِكَ أَعْتَاباً، مُيَمِّمِينَ مساجدك المعظمة، التي شرَعْتَهَا لكرمك أبواباً؛ نسألك فيها بعيسى روح الحق، ومحمد نبي الصدق، وبموسى

^١ فزع إليه: استغاثه.

^٢ أي من يحمل لالهلال ومن يحمل الصليب.

^٣ النجيب: الكريم. والنجيبة: مؤنثة.

^٤ استبقوا: أي تسابقوا إلى.

الهرب من الرق؛ كما نسألك بالشهر الأبرِّ والصائميهِ،^٥ وليله الأعرَّ والقائميهِ، وبهذه الصلاة العامَّة من أقباط الوادي ومُسلميهِ: أن تُعزِّنا بالعتق^٦ إلَّا من ولأئِكَ، ولا تُذلِّنا بالرق لغير آلئِكَ، ولا تحملنا على غيرِ حكِمِكَ واستعلائِكَ،^٧ اللهم إنَّ الملاء^٨ مِنَّا ومنهم قد تَدَاعَوْا^٩ إلى الخُطَّةِ الفاضلة، والكلمة الفاصلة، في قضيتنا العادلة، فآتنا اللهم حقوقنا كاملة، واجعل وفدنا في دارهم هو وفدك، وجنِّدنا الأعرل إلا من الحق جنِّدك؛ وقلِّده^{١٠} اللهم التوفيق والتسديد، وأعصمهُ في ركنك الشديد. أقم نوابنا المقامَ المحمود، وظلِّلهم بظلِّك الممدود، وكن أنت الوكيل عنَّا توكيلاً غير محدود، سبحانك لا يُحدُّ لك كرمٌ ولا جود، ويُردُّ إليك الأمرُ كُلُّهُ وأمرُك غير مردود؛ واجعل القوم محالفينا ولا تجعلهم مخالفينا، واحمل أهل الرأي فيهم على رأيك فينا. اللهم تاجنا منك نطلبه، وعزِّسنا إليك نخطبُه، واستقللنا التأمَّ بك نستوجبُه؛ فقلِّدنا زمامنا، وولِّنا أحكامنا، واجعل الحق إمامنا، وتمم لنا الفرح، بالتي ما بعدها مُقترَح، ولا وراءها مُطرح،^{١١} ولا تجعلنا اللهم باغين ولا عادين، واكتبنا في الأرض من المصلحين، غير المفسدين فيها ولا الضالين.. آمين.

^٥ أي الذين يصومون فيه، وكذلك القائميهِ، وهنا «أل» موصولة.

^٦ العتق: التحرير من الرق.

^٧ الاستعلاء: الغلبة.

^٨ الملاء هنا: بمعنى أشراف الناس.

^٩ اجتمعوا.

^{١٠} قلده السيف: وضع حملته في عنقه.

^{١١} اطرح الشيء: أبعده وطرحه.

الشَّبَابُ

الشَّبَابُ أَيامُ آذَارِ،^١ ودَوْلَةَ العَذَارِ،^٢ وأَعِنَّةُ الأَوْطَارِ،^٣ وليلَةُ العُرْسِ فِي هذِهِ الدَّارِ، سِنَةٌ كَالطَّيْفِ سُرَاهَا،^٤ وَكَقَبْلَةِ الخَلْسِ^٥ حُلْمٌ كَرَاهَا، وَنَشْوَةٌ يَتَلَفَّتُ المَسْتَفِيقُ لَا يَرَاهَا، وَجَنَّةٌ لَوْ خَيْرٌ لِمُقْبَلٍ^٦ بِالْعَقْلِ اشْتَرَاهَا، العَشْقُ فِي غَيْرِ جَنَاحِهِ،^٧ طَائِرٌ لَا يَنْهَضُ بِهِ جَنَاحٌ؛ وَالكَأْسُ مِنْ غَيْرِ رَاحَةٍ، غَبِيَّةُ السَّاقِي بَلِيدَةُ الرَّاحِ؛^٨ وَالمَالُ فِي غَيْرِ خَزَانَتِهِ غَرِيبٌ، وَيَتَحَوَّلُ عَنْ قَرِيبٍ رُؤْيَا الوَارِثِ فِي نَوْمِهِ، وَشَغْلُهُ فِي يَوْمِهِ، وَمَلِكٌ يَدُهُ، فِي غَدِهِ، السُّلْطَانُ وَالدَّوْلَةُ، وَالإِمْكَانُ وَالصَّوْلَةُ، وَالمَلِكُ وَكُلُّ مَا حَوْلَهُ، نَعَمْ إِذَا لَمْ تُحْرَزْ فِي الشَّبَابِ فَمَا هِيَ فِي الجُرْزِ الحَرِيزِ،^٩ وَدَوْلٌ إِذَا لَمْ تَعْتَزَّ بِهِ فَلَيْسَتْ فِي الذَّرَا^{١٠} العَزِيزِ؛ وَلذَاتُ إِذَا لَمْ يَشْهَدْهَا غَادَتْهَا حَسْرَةٌ الفَوْتُ، وَرَاوَحَتْهَا فِكْرَةُ المَوْتِ.

^١ «آذار» فِي الشُّهُورِ العَبْرِيَّةِ يُقَابَلُ «مَارِس» فِي الشُّهُورِ الأَفْرَنْجِيَّةِ، وَهُوَ مَسْتَهْلُ الرَّبِيعِ.

^٢ العَذَارُ: جَانِبُ اللِّحْيَةِ.

^٣ الأَوْطَارُ: الأَعْرَاضُ.

^٤ السَّنَةُ: الغَفْلَةُ أَوْ فَتورٌ يَتَقَدَّمُ النُّومُ. وَالسَّرِيُّ: السَّرِيرُ فِي اللَّيْلِ.

^٥ الخَلْسُ مِنْ خَلَسَ الشَّيْءُ: أَخَذَهُ فِي مَخَاتَلَةٍ.

^٦ الجِنَّةُ، الجَنُونُ، وَالمُقْبَلُ: المَجْنُونُ يَشْفَى مِنْ جَنُونِهِ.

^٧ فِي غَيْرِ كَنَفِهِ.

^٨ غِبَاوَةُ السَّاقِي وَبِلَادَةُ الرَّاحِ: كِتَابَةٌ عَنْ ضَالَّةٍ فَرَحَهَا وَضَعَفَ نَشْوَتَهَا.

^٩ الحَرِزُ الحَرِيزُ: الحِصْنُ المُنْبَعِ.

^{١٠} الذَّرَا: الكَنَفُ وَالمَلْجَأُ.

أرُوعُ الشهرة ما طار في سمائه، وأَمْتَعُ الصيت ما سار تحت لوائه، وأَحْسَنُ الثناء ما أُتِيَ في أثنائه، ورفَّ على قشيبِ رده؛^{١١} في مطالعه يَرُوعُ النبوغ، كما تروغُ الشمسُ في البزوغ، أو الهلالُ الغلام^{١٢} في البلوغ.

فيا ناهبَ شبابه، قاعدًا للتَّجْر^{١٣} ببابه، يسرفُ في الرَّحِيقِ وَحُبَّابِهِ^{١٤} وَيُنْتَلِفُ الصَّبَا بين صبابته وأحبابه.. أَفُق! تلكِ دِنَانُ،^{١٥} لا تَقْوَى على الإِدْمَانِ،^{١٦} ولا يملؤها مرتين الزمان، كَرْمٌ لا يوجدُ في الجنان، ولا ينبت في «مالقة» ولا «شَمْبَانِ»،^{١٧} عناقيدُهُ مُخْتَصِرَةٌ^{١٨} الثمار، مُخْتَصِرَةٌ الأعمار، بريئةُ الخمر من الخُمارِ،^{١٩} حَلْبُهَا^{٢٠} الأفرح، وَجَلْبُهَا المِرَاحُ، وهي فارضية^{٢١} الراح، لم تَطَأْهَا الأقدام ولم تَمَسَّهَا الرَّاحُ،^{٢٢} فلا تُعَبُّ الرَّاقُودُ،^{٢٣} وَأَشْرِبُهُ نَعْبَةً نَعْبَةً،^{٢٤} ولا تخترطُ العنقودُ،^{٢٥} وَكُلُّهُ حَبَّةٌ حَبَّةٌ.

^{١١} الرداء القشيب: الجديد النظيف.

^{١٢} أي الصغير.

^{١٣} التجر: بائع الخمر.

^{١٤} الرحيق: الخمر. والحباب: الحب.

^{١٥} الدنان: جمع دن وهو إناء الخمر.

^{١٦} الإدمان: مداومة الشراب.

^{١٧} شمبان: مقاطعة في فرنسا اشتهرت بجودة الخمر. ومالقة: مدينة في أسبانيا، في ضواحيها كروم يستخرج منها نبيذ «ملقا» المشهور. وقد استعاض المؤلف بهذين البلدين عن «بابل» و«أندرين» وعمما اعتاد العرب أن يذكروا من البلاد إذا ذكروا الخمر.

^{١٨} اختصر الكلاً. قطع وهو أخضر.

^{١٩} الخمار: صداع الخمر وأذاها.

^{٢٠} الحلب: اللبن المثلوب.

^{٢١} فارضية: نسبة إلى ابن الفارض.

^{٢٢} الأكلف.

^{٢٣} عب الماء: شربه بلا تنفس. والراقود: دن الخمر.

^{٢٤} جرعة جرعة.

^{٢٥} اخترط العنقود: وضعه في فمه ثم أخرج عود عارياً.

الخير

شجرة مرآها جميل، وظلها مقيـل،^١ وأعالـيها هـديـل،^٢ وهـي مـذلـة السـبـيـل، الطـيـر عـلـى جـوانـبـها تـمـيـل، والنـاس فـي ظـلـها الظـلـيـل؛ فـأما الطـيـر فـتـنـزـل مـجـمـلـات،^٣ وتـرحـل غـيـر مـحـمـلـات، تـسـقـط مـشـفـقـات، وتـلقـط مـتـرفـقـات، وتـشـدو بـشـكـر الصـنـيـع مـنـطـلـقـات؛ وأما النـاس فـلا يـتـنـدـون فـي الثـمـرة،^٤ ولا يـرـفـهـون عـن الشـجـرة،^٥ يهـزـون أـصـولـها بعـنف، ويـنـفـضـون فـروعـها بـغـيـر لـطـف؛ يسـاقـطـون الجـنـى،^٦ بـطـرف العـصـا، ويـسـتـنـزـلـون الثـمـر، بـرـمـي الحـجـر؛ يـلمـون ويلـومـون،^٧ ويـطـعمـون ويـطـعنـون، ويـلـعـقـون^٨ ويـلـعنـون؛ يـجـنـون الثـمـر، ويـلـحـون^٩ الشـجـر.

^١ المقيـل: الـذي يـؤوي إـلـيـه عـند الـظـهـر.

^٢ الـهـديـل: صـوت الـحـمـام.

^٣ أـجـمـل فـي الـطـلـب: رـفـق.

^٤ لا يـتمـهـلون فـي جـنـيـها.

^٥ رـفـه عـنـه: نـفـس و خـفـف.

^٦ يسـاقـطـونـه: أي يـتـابـعون إـسـقـاطـه. والـجـنـي، ما يـجـني مـن الشـجـر ما دـام غـضـا.

^٧ يـلمـون الثـمـر ويلـومـون الشـجـر؛ لـأنـه لـم يـشـع نـهـمـهـم.

^٨ لـعـق العـسـل: لـحـسـه والـمراد التـمـتـع بـحـلـاوة الثـمـر.

^٩ لـحـا الشـجـرة: قـشـرـها؛ ولـحـاه أـيـضـا: سـبـه وعـابـه.

الظُّمُّ

قليلُ المدَّة، كليلُ العُدَّة،^١ وإن تظاهر بالشدَّة، وتناهى في الحِدَّة، عَقْرَبُ بِشَوْلَتِهَا^٢ مختالة، لا تَعْدَمُ نِعْلًا قَتَّالَةً، رِيحٌ هَوَجَاءٌ لا تَلْبِثُ أَنْ تَتَمَزَّقَ فِي البِيدِ،^٣ أو تَتَحَطَّمُ على أطرافِ الجلاميد،^٤ فِتْبِيد، جامِحٌ^٥ رَاكِبُ رَأْسِهِ، مُخَايِلٌ بِبِأْسِهِ، غَايِبَةٌ صَخْرَةٌ يُوَأْفِيهَا، أو حُفْرَةٌ يَتَرَدَّى فِيهَا، سَيْلٌ طَاغٍ لا يَعدَمُ هَضَابًا تَقْفُ فِي طَرِيقِهِ، أو وَهَادًا^٦ تَجْتَمِعُ على تَفْرِيقِهِ، جِدَارٌ مُتَدَاعٍ أَكْثَرُ ما يَتَهَدَّدُ،^٧ حين يَهْمُّ أَنْ يَتَهَدَّدَ،^٨ هو غَدًا خَرَابٌ، وَكُومَةٌ من ترابٍ، نارٌ مُنْقَطِعَةٌ المَدَدِ، وإن سَدَّتِ الجَدَدَ،^٩ ومَلَأَتِ البَلَدَ، يَأْكُلُ بعضها بعضًا كَنارِ الحَسَدِ.

^١ السيف الكليل: الذي لا يقطع.

^٢ الشولة: ما ترفع العقرب من ذنبها.

^٣ جمع بيدا وهي الفلاة.

^٤ جمع جلمود: وهو الصخر.

^٥ أي فرس جامح.

^٦ جمع وهدة: وهي الهوة في الأرض.

^٧ أي أكثر ما يخاف منه.

^٨ أي يسقط.

^٩ الجدد: الطريق الواسع.

الْقَلْبُ

يا طبيبَ الجَمَاعَةِ: قُمْ أَلِقِ السَّمَاعَةَ، وَسَلِّ هَذِهِ السَّاعَةَ،^١ مِنْ أَدَقِّ اللَّحْمِ صِنَاعَةَ، وَمَنْحِ
الدَّمَ المِنَاعَةَ؟، مُضَغَّةٌ^٢ إِذَا فَتَرَتْ^٣ سُلِبَتِ البرَاعَةُ، وَلَبِسَتِ العَجْزَ والصَّرَاعَةَ،^٤ تَدَابِيرُكَ
عِنْدئذٍ مُضَاعَةٌ، وَعَقَاقِيرُكَ مُزْجَاةٌ^٥ بِضَاعَةٍ.

^١ المراد بالساعة هنا: القلب، شبه بها بجامع الدق المنتظم في كل.

^٢ قطعة لحم.

^٣ فتر: سكن بعد حدثه.

^٤ الصراعة: الضعف.

^٥ البضاعة المزجاة: أي الرديئة.

الذِّكْرَى

من البرِّ يا قلبُ أن تَذَكِّرَ^١، فَمِلْ بي على الفائتِ المُنْدَثِرِ، ولا تَأَلِّ^٢ ذكْرَى ولا تَدَّخِرْ. هَلُمَّ
نَنْشُرْ مَطْوِيَّ الصَّفَحَاتِ، وَنُقَرِّبْ نازِحَ^٣ اللذاتِ، وَنُؤَبِّ من سَفَرِ الأيَّامِ بغائبِ اللَّباناتِ.^٤
أَعِدْ عَيْيَّ من دَقَّاتِ نَاقوسِكَ ترنيمًا،^٥ كان لذيذِ الحواشي رخيماً، ومن دقائق ساعتِكَ ما
رَنَّ في أذني قديماً، فما زِلتَ يا قلبُ تَقْضِي الحُقُوقَ، وتذكر العهودَ فَتَجْزِيها التَّلَفُّتَ^٦
والخقوقَ، حتى كأنَّكَ قلبانِ، اثنانِ، قلبٌ مع الماضي مُتَخَلِّفُ العِنانِ، وقلبٌ يساير رَكَبَ^٧
الزَّمانِ، بِعَيْشِكَ قَلْ لي: من عَلَّمَكَ رَدَّ الأحلامِ، ورجوعَ القَهْقَرَى في نَواحي الأيَّامِ؟؛ ومن
رَسَمَ لك الإلمامَ،^٨ بدمنة عَيْشٍ أو بِرَسْمِ غرامٍ؟؛^٩ ومن عَلَّمَ الدَّمَ وَصَلَ الحِبالِ،^{١٠} وَحَمَلَ
اللَّحْمَ ما يوهن الجبالِ، من الحنينِ إلى سالفِ خالِ، أو البُكاءِ على دارِسِ بالٍ؟؛ وما

^١ اذكر الشيء: ذكره.

^٢ ألا في الأمر يألو: قصر فيه وأبطأ.

^٣ النازح: البعيد.

^٤ آب يؤوب: رجع، واللبنات: الحاجات.

^٥ الترنيمة: تطريب الصوت.

^٦ تلفت القلب: كناية عن الشوق.

^٧ الركب: ركاب الخيل أو الإبل.

^٨ رسم له كذا. أمره به وألم بالقوم إلاماً: زارهم زيارة قصيرة.

^٩ الدمنة: آثار الدار، والرسم: ما كان لاحقاً بالأرض من هذه الآثار.

^{١٠} المراد بالحبال هنا: العهود.

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

سُلْطَانُكَ يَا قَلْبُ حَتَّى تُدْنِي الْمُمْعَنَ^{١١} فِي بُعْدِهِ، وَتَجِدَهُ وَإِنْ تَطَاوَلَ الْعَهْدُ عَلَى الْعَهْدِ عَلَى فَقْدِهِ؟ وَمَنْ عَلَّمَكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ، وَتَقْلِبَ الْأَقْدَمَ وَالْأَحْدَثَ،^{١٢} وَتَذَكَّرَ الصَّبَا وَأَيَّامَهُ، وَوَادِيَهُ وَأَرَامَهُ،^{١٣} وَبِسَاطَهُ وَمُدَامَهُ؟ ...

هُوَ اللَّهُ الَّذِي صَوَّرَكَ فَأَدَقَّكَ، وَقَدَّرَ خَفْوَكَ وَدَقَّكَ، وَمَهَّدَكَ وَزَقَّكَ،^{١٤} وَكَتَبَ عَلَيْكَ فِي الضُّلُوعِ رِقَّكَ؛^{١٥} وَمَا أَنْتَ لَوْلَا التَّذَكُّرُ وَالْفِكْرُ، إِلَّا كِبْعُضُ الْقُلُوبِ إِذَا هِيَ حَجَرٌ، يَنْفَجِرُ بِالْعَذْبِ وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ انْفَجَرَ، وَلَا مَتَى نَبَعَ وَلَا أَيْنَ انْحَدَرَ، أَوْ كَالْأَرْضِ يَذْهَبُ شَجَرٌ وَيَأْتِي شَجَرٌ. فَلَا تَذَكَّرُ مَا غَابَ، وَلَا تَشْعُرُ بِمَا حَصَرَ.

^{١١} الممعن: المبالغ.

^{١٢} مبالغة في القديم والحديث.

^{١٣} الآرام: جمع وثم وهو الظبي الخالص البياض.

^{١٤} زق الطائر فرخه: أطعمه بمنقاره.

^{١٥} إشارة إلى سجنه تحت الضلوع من يوم الميلاد إلى يوم الوفاة.

شَاهِدُ الزُّورِ

يا شاهدَ الزُّورِ، أنتَ شرٌّ مَوْزُورٌ؛^١ ضَلَلْتَ الْقُضَاةَ، وَحَلَقْتَ كَاذِبًا بِاللَّهِ؛ وَنِلْتَ الْأَبْرِيَاءَ
بِأَذَاةٍ،^٢ وَحُلْتَ بَيْنَ الْقِصَاصِ وَالْجُنَاةِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

^١ الموزور: الذي يحمل الإثم.

^٢ المكروه.

الصَّبْرُ

بعض الصبر تجلُّد، وثمَّ الحزمُ والرِّضا؛ وبعضُ تبلُّد،^١ وهنا العجزُ والاستِخْذاء،^٢ ليس الصبرُ غلظةَ القلب، وبلادةَ اللُّبِّ؛ أو الجهلَ على الأقدار، وإنكارَ الإيرادِ عليها والإصدار؛ ولا هو اكتظاظُ الأندية،^٣ وألْفاظُ تجري بالتعزية؛ ورجلٌ يُحدِّثك بالصَّبر، وإذا أُصيبَ تمنَّى القبر؛ إنما البرُّ استرجاعُك^٤ في النفس الحزينة، حتى تفيء^٥ إلى السكينة، وتجيء^٦ من نفسها إلى الطمأنينة، إيمانٌ يزَع،^٧ عند الجَزَع، وعقلٌ يَزِن، إذا القلبُ حَزِن؛ ومقابلةُ الأحكامِ بالحِكْمَة، والعلمُ بأنَّ النُّعمةَ نذيرُ النُّقْمَة؛ وبأنَّ الدَّهرَ حالتان، والدنيا حُلَّتَان؛ وأن من ينتفعُ بالصَّبرِ رِي، وأن لكلِّ شيءٍ غايةً وينتقضي.

^١ التبلد: الحيرة والتلهف.

^٢ الاستخذاء: الخضوع.

^٣ امتلاء الجامع بأخلاق المعزين.

^٤ قولك «إنا لله وإنا إليه راجعون».

^٥ ترجع.

^٦ تلتجئ.

^٧ يمنع من الحزن.

شَهَادَةُ الدِّرَاسَةِ وَشَهَادَةُ الْحَيَاةِ

ما بالُ النَّاشِئِ وَصَلَ اجْتِهَادَهُ، حَتَّى حَصَلَ عَلَى الشَّهَادَةِ؛ فَلَمَّا كَحَلَ بِأَحْرَفِهَا عَيْنِيهِ، وَظَفِرَتْ بِزُخْرِفِهَا كِلْتَا يَدَيْهِ؛ هَجَرَ العِلْمَ وَرُبُوعَهُ، وَبَعَثَ إِلَى مَعَاهِدِهِ بِأَقْطُوعَةٍ: ^١ طَوَى الدَّفَاتِرَ، وَتَرَكَ المَحَابِرَ، وَذَهَبَ يُخَايِلُ ^٢ وَيَفَاخِرُ، وَيَدَّعِي عِلْمَ الأَوَّلِ وَالأَخْرِ؟
فَمَنْ يُنَبِّئُهُ، ^٣ بَارَكَ اللهُ فِيهِ لِأَنِّيهِ، وَجَزَى سَعْيَ مُعَلِّمِهِ وَمُرَبِّيهِ: أَنْ الشَّهَادَةَ طَرَفُ السَّبَبِ، ^٤ وَفَاتِحَةُ الطَّلَبِ، وَالجَوَازُ ^٥ إِلَى أَقْطَارِ العِلْمِ وَالأَدَبِ، وَأَنَّ العِلْمَ لَا يُمْلِكُ بِالصُّكُوكِ وَالرِّقَاعِ، ^٦ وَأَنَّ المَعْرِفَةَ عِنْدَ الثَّقَاتِ غَيْرُ وَثَائِقِ الإِقْطَاعِ. ^٧ وَمَنْ يَقُولُ لَهُ أَرشَدَهُ اللهُ، إِنْ شَهَادَةَ المَدْرَسَةِ غَيْرُ شَهَادَةِ الحَيَاةِ؟
فِيَا نَاشِئَ القَوْمِ بَلَغْتَ الشَّبَابَ، وَدَفَعْتَ عَلَى الحَيَاةِ البَابَ؛ فَهَلْ تَأَهَّبْتَ لِلْمَعْمَعَةِ، ^٨ وَجَهَّزْتَ النَفْسَ لِلْمَوْقَعَةِ، وَوَطَّنْتَهَا ^٩ عَلَى الضِّيْقِ بَعْدَ السَّعَةِ، وَعَلَى شِظْفِ العَيْشِ بَعْدَ

^١ الأقطوعة: شيء تبعث به الجارية إلى الأخرى علامة المقاطعة والخصام.

^٢ خايل زميله: باراه وفاخره.

^٣ أي يخبره.

^٤ السبب: هو الحبل، وطرف السبب يراد به مبدأ الحياة.

^٥ الجواز: علامة المرور وصك المسافر.

^٦ الصك: الكتاب، والجمع صكوك. والرقاع: جمع رقعة، وهي القطعة المكتوبة من الورق.

^٧ الإقطاع: أن يجعل الأمير غلة البلد للجند.

^٨ المعمة: صوت الأبطال في الحرب.

^٩ وطن نفسه على الأمر وله: مهدها لفعله وحملها عليه.

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

الدَّعَاةُ؟ دعت الحياةُ نَزَالَ،^{١٠} فَهَلُمَّ اقْتَحِمِ الْمَجَالَ، وَتَوَرَّدَ^{١١} الْقِتَالَ؛ أَعَانِكَ اللهُ عَلَى الْحَيَاةِ،
إِنَّهَا حَرْبٌ فُجَاءَاتٌ، وَغَدْرٌ وَبَيَاتٌ،^{١٢} وَخِدَاعٌ مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْحَادِثَاتِ؛ فَطُوبَى^{١٣} لِمَنْ
شَهِدَهَا كَامِلَ الْأَدْوَاتِ، مَوْفُورَ الْمُعَدَّاتِ؛ سَلَاخُهُ، صَلَاخُهُ؛ وَتُرْسُهُ، دَرَسُهُ؟، وَيَلْبُهُ،^{١٤} أَدْبُهُ؛
وَصَمْمَاتُهُ،^{١٥} اسْتِقَامَتُهُ؛ وَكِنَانَتُهُ،^{١٦} أَمَانَتُهُ؛ وَحَرْبَتُهُ، دُرْبَتُهُ.^{١٧}

^{١٠} اسم فعل أمر بمعنى: انزل.

^{١١} تورد الماء: ورده.

^{١٢} البيات: الإيقاع بالعدو ليلاً.

^{١٣} شجرة في الجنة كما يقال. وهي الجنة عند الهنود.

^{١٤} اليب: الدروع اليمانية.

^{١٥} الصمصام والضمصامة: السيف: السيف الذي لا ينثني.

^{١٦} الكنانة: جعبة السهام.

^{١٧} الدربة: الاختبار والتجربة.

الحياة

القَبَسُ،^١ والنَّفْسُ، والرُّوحُ القُدُّسُ؛ ظاهرُها هذه الجيفة،^٢ وباطنُها النفسُ الشريفة؛ تَبِعَةُ الذَّنْبِ القديم،^٣ وأثرُ آدمَ على الأديم؛^٤ فيا طريدَ القَدَرِ،^٥ وَنَفْيَ الحُظُرِ،^٦ وأبا البَشَرِ؛ ما أطولَ ذَمِّكَ،^٧ وأدومَ مَاءِكَ، وما أكثرَ بِنَاتِكَ وأبنائك، وأقلَ اهتمامِكَ بهم واعتناءكَ!، وَلِدَتَ للمَوْتِ، وأوجَدتَ للَفَوْتِ؛ تَقَسَّمَ القَبَسُ نُفوسًا بلا عَدَد. وتفرَّقَ النَّفْسُ في شَتَّى الوَلَدِ؛ فليتِ شعري كيف استقلَّهما صلِّصًا،^٨ وكيف قويتَ عليهما أوصلًا؟^٩ آمَنَّا بأنَّكَ الجدُّ، فهل لهذا التدفُّقِ حد، أم ما لأمرِ الله مَرَدٌّ؟ الحياة كعهدِكَ بها مَعْصِيَةٌ، عن الحظيرة مُقْصِيَةٌ؛ وحُلُوةٌ، حُلُوةٌ؛ عواقبُها نَغْصٌ،^{١٠} ومشاربُها غُصصٌ؛ أفعَى خدَّاعةً، ولذَّةً لذَّاعةً؛

^١ شعلة تؤخذ من معظم النار.

^٢ المراد بالجيفة: الجسم الذي لا يلبث أن يموت حتى يجيف.

^٣ ذنب آدم يوم أكل في الجنة من الشجرة التي نهى عن أكل ثمرها.

^٤ الأديم: وجه الأرض.

^٥ الخطاب لآدم.

^٦ النفي. ما جفأت به القدر عند الغليان، والحظر: جمع حظير، والمراد بها هنا الجنة.

^٧ الذمائم: بقية النفس.

^٨ استقل الشيء: حمله والصلصال: الطين الحر خلط بالرمل.

^٩ الأوصال: الأعضاء.

^{١٠} نغص الرجل نغصًا: لم يتم مراده فهو قلق حزين.

أَسْوَاقُ الدَّهَبِ

شَوْكُ بَعْضِ الْوَرْدِ، وَقَدَى نَعَّصِ الْوَرْدِ،^{١١} أَمُورٌ شَتَى الْأَعْنَةَ، وَحَوَادِثُ وَقَعَتْ وَأَجَنَّةٌ؛^{١٢} فَقُلْ
لِمَنْ أَطَالَ التَّفَكِيرَ، وَبَالَغَ فِي النُّكْيَرِ^{١٣} وَكَدَّ بَالَهُ، وَمَدَّ بِلْبَالِهِ،^{١٤} وَاحْتَرَقَ احْتِرَاقَ الْبَالَةِ:

خَلَّ اهْتِمَامَكَ نَاحِيَهُ وَخُذِ الْحَيَاةَ كَمَا هِيَ

^{١١} الورد: الإشراف على الماء للاستقاء.

^{١٢} الوقع: جمع واقع، وهو الحاصل. والأجنة: جمع جنين، وهو المستور من كل شيء.

^{١٣} النكير: الإنكار.

^{١٤} اللبال: الهم ووسواس الصدور.

الحياةُ أيضًا

أحقُّ أنها هيَ الدَّمُ حتى يَجْمُدُ؟ وأنها هي الحرارة حتى تبرد؟ وأنها هي الحَرَكَةُ حتى يَقْطَعَهَا السُّكُونُ؟، وأنها هي الجاران^١ حتى تُفَرِّقَ بينهما المنون؟
الحقُّ أن افتتأت^٢ الفلسفة، على ضنائن الله^٣ سَفَهَ، وأن عِلْمَ الحياةِ عند الذي يَهْبِئُهَا وَيَسْتَرِدُّهَا، والذي يَقْصِرُهَا^٤ ويمدّها، والذي يُخْلِقُهَا^٥ وَيَسْتَجِدُّهَا: والذي كُلُّ حَيٍّ سِوَاهُ يموت، وكلُّ شيءٍ ما خلاه يفوت.

^١ الجاران: الروح والجسد. والمتنبّي يقول: ومفترق جاران دارهما العمر.

^٢ افتتأت عليه: اختلق عليه الباطل.

^٣ ضنائن الله عز وجل: ما اختص ذاته بعلمه من الأمور.

^٤ قصر الشيء يقصره: جعله قصيرًا.

^٥ يخلقها: يبليها.

الحياة أيضا

ماذا أقولُ في ابنة الموتِ وأُمِّه، وَعِلَّةَ حُكْمِه، وَنَبْعَةَ سَهْمِه،^١ وَمَنْقَعَةَ سُمِّه؟^٢ وكيفَ القَوْلُ في صاحِبَةٍ،^٣ لم تُمَلِّكْ عن خِطْبَةٍ،^٤ ولم يُبَيِّنْ بها^٥ عن رغبة، ولم تَبَيِّنْ^٦ للملالِ صُحْبَةَ، أو بِغْضَةٍ^٧ بعد محبَّة؛ تسيء ولا تُفْرِكْ،^٨ ولولا الموت لم تُتْرِكْ؟

^١ النبعة: القوس.

^٢ منقعة السم: الإثناء الذي يوضع فيه.

^٣ المراد بالصاحبة هنا: الزوجة. والمقصود بها الحياة. وقد شبه الجسم والروح في هذه الجملة وما بعدها، ثم مضى في التشبيه بين وجوه الخلاف.

^٤ أي لم تزوج للجسم بعد طلب يدها كالعادة في كل زواج.

^٥ بنى الرجل على أهله: زفت إليه.

^٦ بانث المرأة عن الرجل: انفصلت عنه بطلاق.

^٧ البغضة: شدة البغض.

^٨ أي لا تبغض، والفرك خاص ببغضة الزوجين.

اللِّسَانُ

مضغَةٌ^١ لحم: في عَظْمٍ؛ سَمَّاهَا النَّاسُ اللِّسَانَ، وعَظَمُوهَا لِفَضِيلَةِ البَيَانِ، فَقَوِّمُوهَا بِنَصْفِ
الْإِنْسَانِ؛ عِضْلٌ نَبْتُ مِنَ الْحُلُقُومِ وَقِنَاتِهِ، وَتَبَّتْ فِي أَصْلِ لَهَاتِهِ،^٢ وَلَبَّثَ فِي السَّجْنِ ظُمَّاءَ
حَيَاتِهِ،^٣ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْهُ سِوَى شِبَابَتِهِ؛^٤ رَسُولُ الْعَقْلِ، فِي النَّقْلِ؛ وَأَدَاةُ الدُّمَاعِ، فِي الْبَلَاغِ؛
وَتَرَجَمَانُ النَّفْسِ فِي رِوَايَةِ الْعَاطِفَةِ، وَحِكَايَةِ الصَّحْوِ وَالْعَاصِفَةِ؛ الْوَحْيُ عَلَى عَذَابَاتِهِ^٥
ظَهَرَ، وَمِنْ جَنَابَاتِهِ انْحَدَرَ؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَفَرَ،^٦ بَيْنَ الْخَالِقِ وَبَيْنَ الْبَشَرِ، ثُمَّ فُجِّرَ
بِالْحِكْمَةِ فَاَنْفَجَرَ، ثُمَّ عَلِمَ الشَّعْرَ فَشَعَرَ، فَسَبَّحَانَ الَّذِي خَلَقَهُ وَعَلَّقَهُ، وَالَّذِي قَيَّدَهُ وَأَطْلَقَهُ،
وَالَّذِي اسْكَنَهُ وَأَنْطَقَهُ. وَالَّذِي يُمَيِّتُهُ فَيَنْدَثِرُ، وَالَّذِي هُوَ عَلَى بَعْتِهِ مُقْتَدِرٌ.

^١ المضغعة: القطعة.

^٢ اللهاة: اللحمة المشرقة على الحلق في أقصى سقف الفم، أو ما بين منقطع اللسان إلى منقطع القلب
من أعلى الفم.

^٣ ظمء الحياة. من الولادة إلى وقت الموت.

^٤ الشبابة: الطرف.

^٥ العذبات: الأطراف من كل شيء.

^٦ سفر الرجل: خرج إلى السفر.

الْبَيَانُ

رَحِيقُ النَّبِيِّينَ،^١ وإبريقُ الْعَبْقَرِيِّينَ،^٢ وحطُّ المرزوقينَ، ونصيبُ الموفِّقينَ، وذَرَا الجمالِ،^٣ وذُرَا الكمالِ،^٤ والتوفيقُ الذي لا يُنالُ، بسُلطانٍ ولا مالٍ، والحُلْدُ الذي يُؤخَذُ باليمينِ وغيره يُؤخَذُ بالشُّمالِ؛ صديقُ البشريَّةِ، وعدُوُّ الجبريَّةِ،^٥ حادي الإنسانيةِ، والسائقُ بالمطيَّةِ، حتى تَبْلُغَ الطِّيَّةَ،^٦ يمرُّ بها على الخيرِ ورُبوعه، والبرِّ ونُبوعه، ويُقبَلُ بها على الحقِّ وقبيلهِ،^٧ ويعدِّلُها على العدلِ وسبيلهِ، ويُلْمُ بها على الجمالِ ومَعْنَاهُ، وعُرِفَ لفظه تحتَ حولِ معناه،^٨ ويلجُ بها على العَواطِفِ، حنايا الضُّلوعِ اللِّواطِفِ،^٩ وهو المَلِكُ على كلِّ اللُّغاتِ، قد انتظَمَ سُلطانُه أَقطارَ البلاغاتِ؛ إذ انتقلَ من لسانِ إلى لسانِ، في أمانةٍ من الناقلِ

^١ الرحيق: الخمر، وقد شبه بها المؤلف بلاغة الأنبياء بجامع التأثير في كل؛ هذا في العقول، وهذه في الأرواح.

^٢ أي إبريق الذي يشرب منه العبقريون فيمطرون الناس روائع الحكمة وفصل الخطاب.

^٣ الذرا: الملجأ.

^٤ الذرا: جمع ذروة، وهي القمة.

^٥ الخلد: دوام البقاء، والمقصود به هنا الذكر الخالد.

^٦ الجبرية: الجبروت.

^٧ الطية: الجهة التي إليها تطوى البلاد.

^٨ القبيل: الجماعة من أقوام شتى.

^٩ يقال: هذا البيت تحت ساكنه فلان، وعلى هذا القياس يكون اللفظ تحت معناه.

^{١٠} اللواطف من الأضلاع: ما دنا من الصدر.

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

وإحسان، أَسْرَعَ فِي مُضَاهَاةِ،^{١١} وَتَمَكَّنَ فِي جِهَاتِهِ، تَمَكَّنَ اللِّسَانِ مِنْ لِهَاتِهِ،^{١٢} فَكَأَنَّهُ التَّغْرِيدُ أَوْ البِغَامُ،^{١٣} أَوْ مَنْطِقُ الأَنْعَامِ، تَرْجِعُ لَهُ الأَمَمِ، وَإِنْ نَهَبَتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِكَلَامِ.

^{١١} أي أسرع في مشاكلة اللسان المنقول إليه.

^{١٢} اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

^{١٣} البغام: صوت الظبية.

المُلُّ

يا مالُ: الدنيا أنت، والناسُ حيثُ كُنْتُ، سَحَرَتِ القُرُونُ، وَسَخِرَتَ من قارونَ، وَسَعَرَتِ النارُ يا نيرون؛^١ تَعَوَّدَ الحِقْدُ أنْ يحالفَكَ، وأبى الحسدُ أنْ يُخالِفَكَ، وَكُتِبَ على الشَّرِّ أنْ يخالطَكَ ويؤالفَكَ؛ الفتنةُ إنْ حَرَّكْتَها اتَّقَدَتْ، وإنْ تَرَكَتَها رَقَدَتْ؛ والحَرْبُ وهي الحَرْبُ،^٢ تَبِعَتْها ذاتُ لَهَبٍ، منك الرِّياحُ ومنك الحطبُ؛ تَزْرِي بالكرامِ، وتُغْري بالحرامِ، وتُضْري^٣ بالإجرامِ؛ فقداك العُرُءُ والضَّرُّ، ونكدُ الدنيا على الحُرِّ؛ حالِك وحال الناسِ عَجَبٌ: تَمْلِكُهُم من المهدِّ، ويقولون أصبنا وملكننا؛ وتَرِثُهُم عند اللحدِ، ويقولون ورثنا وتركننا! من عاشَ قَوْمُه بما مَلَكَ، ومن هَلَكَ تساءلوا: كم تَرَكَ؟ المحروم من أوثَقَكَ، والضَّاع من أطلَقَكَ، وهما فقيران: مَنْ جَمَعَكَ وَمَنْ فَرَّقَكَ؛ كَثِيرُكَ هَمٌّ وقَلِيلُكَ غَمٌّ؛ ومع التوسُّطِ الخوفُ والطَّمَعُ، والحِرْصُ والجشعُ، حَذَرَ النِّفادِ، ورَغَبَةً في الازديادِ، المَلِكُ سوقَةٌ إذا نزلَ إليك، والسُّوقَةُ مَلِكٌ إذا عَلَا عليك، أَرخِصْتَ الجمالَ، ونَقَصْتَ الكمالَ، وخطَبْتَ لِهَجَنِ الرِّجالِ، هِجانٌ^٤ رَبَّاتِ الجِجالِ، صَوِّجباتك هُنَّ المَفْضَلاتِ، وَغَيْرُهُنَّ المَتروكاتِ المعضلاتِ؛^٥ العريان من

^١ سحر النار: وقدها. ونيرون: قيصر من قياصرة الرومان أشعل النار في روما، وأشرف عليها من جبل ليبتهج بمنظر الحريق، وقد ضرب به المثل من هذا اليوم في القسوة والطغيان.

^٢ الحَرْبُ: الهلاك.

^٣ أضرى فلاناً بالشر: أغراه به.

^٤ العُرُ: الجرب.

^٥ هجن. جمع هجين، وهو اللئيم، والهجان من كل شيء: خياره.

^٦ عضل المرأة: حبسها عن الزواج.

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

لَيْسَ دُونَكَ مِنْهُ سِتْرَةٌ، وَالْمُسْتَضْعَفُ مِنْ لَيْسَ لَهُ مِنْكَ قُدْرَةٌ، فَسَبْحَانَ مَنْ قَهَرَ بِكَ الْخُلُقَ، وَقَهَرَكَ بِرِجَالِ الْخُلُقِ.

الأهرام

ما أنت يا أهرام؟؟ أشواهِقُ أجرام،^١ أم شواهِدُ إجرام؟^٢ وأوضاحُ معالم،^٣ أم أشباحُ مَظالمٍ؟ وجلائلُ أبنيةٍ وآثار، أم ذلائلُ أنانيةٍ واستتُّار؟^٤ وتمثالٌ مُنصبٌ من الجَبَرِيَّة،^٥ أم مثالٌ ضاحٍ^٦ من العَبَقْرِيَّة؟ يا كليلَ البصر، عن مواضعِ العِبر، قليلَ البَصَرِ^٧ بمواقعِ الآياتِ الكُبرى؛ قفْ ناجِ الأحجارِ الدَّوارس، وتعلِّمُ فإنَّ الآثارَ مدارس؛ هذه الحجارَةُ حجورٌ لِعَبِّ عليها الأوَّل، وهذا الصِّفاحُ صفائحُ ممالكٍ ودُول،^٨ وذلك الرُّكامُ^٩ من الرُّمال، غُبارٌ

^١ الأجرام: الأجسام. والشواهِق: المرتفعة.

^٢ يشير المؤلف إلى ما ارتكب بانوها من ظلم وإرهاق وتسخير.

^٣ الأوضاح: الغرر. والمعالم: ما يستدل بها على الطريق من آثار.

^٤ استأثر بالشيء على غيره: استبد به وخص به نفسه.

^٥ الجبروت.

^٦ الضاحي هنا: بمعنى البارز.

^٧ البصر: العلم.

^٨ الصِّفاح: الحجارَةُ العريضة. والصفائح: حجارَةُ عراض رقاق تسقف بها القبور، والمراد بها هنا نفس القبور، من تسمية الكل باسم جزئه.

^٩ الركام: المتراكم.

أَحْدَاجٍ ١٠ وَأَحْمَالٍ، مِنْ كُلِّ رَكْبٍ أَلَمَّ ثَمَّ مَالٌ، ١١ فِي هَذَا الْحَرَمِ دَرَجٌ عَيْسَى صَبِيًّا، ١٢ وَمِنْ هَذَا الْهَرَمِ خَرَجَ مُوسَى نَبِيًّا، وَفِي هَذِهِ الْهَالَةِ طَلَعَ يُوسُفُ كَالْقَمَرِ وَضِيًّا، ١٣ وَوَقَعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَوَاكِبُ جِثِيًّا، ١٤ وَهَاهُنَا جَلَالُ الْخُلُقِ وَثَبُوتُهُ، وَنَفَازُ الْعَقْلِ وَجَبْرُوتُهُ، وَمَطَالَعُ الْفَنِّ وَبُيُوتُهُ، وَهَاهُنَا تَتَعَلَّمُ أَنْ حُسْنَ الثَّنَاءِ، مَرهُونٌ بِإِحْسَانِ الْبِنَاءِ.

١٠ الأحداج. جمع حدج وهو الحمل، أو مركب من مراكب النساء.

١١ الركب: ركاب الخيل والإبل. وألم بالقوم: زارهم زيارة قصيرة، في أجزاء هذه الفقرة استعارة شُبِهُتَ فِيهَا كُلُّ دَوْلَةٍ بِرُكْبٍ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَحِطَّ حَتَّى يَشِدَّ الرَّحَالَ، وَشَبِهُتِ الرَّمَالُ فِي أَرْضِ الْأَهْرَامِ بِمَا يَتَخَلَّفُ عَنْ أَحْمَالِ هَذَا الرُّكْبِ مِنْ غِبَارٍ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي الْفَقْرَةِ بِأَكْمَلِهَا مِنْ مِرَاعَاةِ النَّظِيرِ.

١٢ يشير المؤلف إلى المدة التي أقامها السيد المسيح مع أمه وهو طفل في المكان الذي يطلق عليه الآن: «شجرة مريم» بمطرية الزيتون.

١٣ الوضيّ، الوضيء، وهو الحسن النظيف.

١٤ جثيا: جمع جاث، وهو الجالس على ركبتيه، وهنا إشارة إلى حلم يوسف عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

الأمس

أمس ما أمس؟ حَطْوَةٌ إِلَى الرَّمَسِ،^١ خِرْزَةَ هَوَتْ عَنِ السَّلْكِ، أَعْلَى مِنْ خِرْزَاتِ الْمَلِكِ؛^٢ صَحِيفَةٌ طُوِيَتْ وَالصَّحْفُ قَلَائِلُ، مِنْ كِتَابِ الْعُمَرِ الزَّائِلِ؛ ثَلْمَةٌ^٣ فِي الْجِدَارِ، وَهَتْ لَهَا الدَّارُ، وَأَنْتِ غَيْرُ دَارٍ؛ جِزْءٌ مِنْ عَمْرِكَ حَضَرَتْ وَفَاتَهُ، وَقَبْرَتْ بِيَدِكَ رُفَاتَهُ،^٤ لَمْ تُرَقِّ عَلَيْهِ عِبْرَةٌ وَلَمْ تَشِيعْهُ بِالتَّفَاتَةِ؛ وَهُوَ الْقَاعِدَةُ^٥ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا الْعُمْرُ، وَالْحَبُّ الَّذِي يَنْبُتُ عَلَيْهِ الشَّجَرُ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ الثَّمَرُ؛ وَهُوَ الْخَبْرُ وَالْأَثَرُ، وَالْكَتَبُ وَالسَّيْرُ، وَالْأَسَى^٦ وَالْعَبْرُ، وَهُوَ أَبُو يَوْمِكَ، وَالْوَالِدُ سُرُّ أَبِيهِ، وَجَدُّ غَدِكَ، فَاجْعَلْهُ النَّبِيلَ فِي الْجِدْوِدِ النَّبِيهِ.

^١ الرمس: القبر مستويًا مع وجه الأرض.

^٢ خِرْزَاتِ الْمَلِكِ: جواهر تاجه.

^٣ الثلمة في الجدار: الخلل.

^٤ الرفات: الحطام.

^٥ قاعدة البيت: أساسه.

^٦ الأسى: جمع أسوة: وهي ما يتعزى به الحزين.

اليوم

طَلَعَتِ الشَّمْسُ، وَنُفِضَتِ الخَمْسُ،^١ من تُرابِ أُمس، وانصرف بنو الأيام من الجنازة، وقد هان عليهم اليوم الراحل، كما هان على المسافر مَطْوِيَّ المراحل،^٢ فلا العبرة أراقوا، ولا على العبرة أفاقوا؛ شغلتهم دنياهم، وأمنوا مناياهم، وألهاهم هواهم؛ فهلكوا دون مناهم؛ فسبحان الذي ألهى بالأمل، وشغل بالعمل، واستنهض الإنسان لأعباء اليوم فحمل؛ والذي جعل الأمس أحاديث، ومواريث؛ وجعل اليوم مجال الناهض الناهز،^٣ وجعل غداً يوم العاجز؛ فيا ابن الأيام لا تعقد مناخة الأمس، ولا تقعد تحرس الرمس؛ ولا تُفسد شغل اليوم بالإرجاء،^٤ ولا تُلِقْ على غدٍ كُلَّ الرجاء؛ واعمل في يومك ما أمكن العمل، وتمتع به ما تسنى التمتع؛ فما تعلم ما قدامك من عوائق، ولا ما دونك من بوائق،^٥ وما تدري: أعوامٌ حياتك أم دقائق؟

^١ الخمس: أصابع اليد.

^٢ طوى المرحلة: قطعها.

^٣ الناهز: الذي يغتنم الفرص.

^٤ الإرجاء: التأخير.

^٥ البوائق: المصائب.

الغدُ

عُيُوبٌ محجوبة، وحُجُبٌ مضروبة، وأقْدَارٌ مكتوبة؛ أعمارٌ موهوبة، أو منهوبة، وأرزاقٌ مجلوبة، أو مسلوبة؛ بريدُ المَلِكِ القَهَّارِ، مَوْعِدُهُ حواشي الأسحار،^١ أو غُرَّةُ النهار؛^٢ حملت الفجاءات نجائبه^٣ واشتملت على المستجدات حقائقه،^٤ وبلغت مُستقرَّها مُغرِّباته^٥ وجوائبه؛^٦ أقبل فَفَضَّ المختوم، وظهر المكتوم، وانفجر المحتوم؛ وإذا مَنَاعٍ وبشائر، وإذا دَوْلَاتٍ^٧ ودوائر.^٨ واعلم يا ابن الأيام أن الغد أعدّه الله لك خيرَ ما أعدّه، ومدّه لك أيمنَ^٩ ما مدّه؛ هو الشخص الثالث، في رواية الأيام والحوادث،^{١٠} والخَلْفُ من صاحبيه والوارث؛ وهو مَعْقِدُ الآمال،^{١١} ومَوْعِدُ استئناف الأعمال، ومَرَمَى هَمَّةِ^{١٢} المال، تنام الأنفس وفي

^١ السحر: قبيل الصبح.

^٢ غرة النهار: أوله.

^٣ النجائب: جمع نجيبة، يقال: ناقة نجيبة، أي كريمة الأصل.

^٤ الحقائق: جمع حقيبة، وهي خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد ونحوه.

^٥ المغربات: الأخبار الطارئة، والجوائب كذلك.

^٦ المغربات: الأخبار الطارئة، والجوائب كذلك.

^٧ دولت الأيام: انقلابها من حال إلى حال.

^٨ الدوائر: الدواهي.

^٩ أيمن - من اليمن: وهو البركة.

^{١٠} شبه الحياة برواية أبطالها ثلاثة: الأمس واليوم والغد.

^{١١} معقد الآمال: موضع انعقادها.

^{١٢} يريد بهمة المال: فوائده.

أَسْوَاقُ الدَّهَبِ

إِيمَانَهَا مِنْهُ شَكٌّ، وَفِي أَيْمَانِهَا مِنْهُ صَكٌّ،^{١٢} فَاعْمَلْ لَهُ مَا اسْتَطَعْتَ، وَانْتَظِرْهُ أَتَى أُمٌّ لَمْ يَأْتِ؛ وَقُلْ سُبْحَانَ الَّذِي أَتَى بِهِ، وَالَّذِي هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ طَيِّبِ كِتَابِهِ، يَوْمَ يَأْتِيهِ أَمْرُهُ، فَلَا يَبْرُزُ مِنْ حَجَابِهِ.

^{١٢} الصك: كتاب الإقرار بالمال ونحوه، يريد أنه واثق بقدمه.

المَسْجِدُ الْحَرَامُ

الساحة الكُبرى، والدار اللُّموم،^١ والمُوسِمُ الحاشِر،^٢ المُنْتدى والمؤتمِر، ومثابَةُ الرُّمَر؛^٣ غبْرَةُ المَبْجِر، ونَجْمُ المُصْجِر؛^٤ قِبْلَةُ البَدَوِيِّ فِي قَفْرِهِ، ووجهُهُ القَرَوِيِّ فِي كَفْرِهِ؛^٥ حَرَمُ الله المَطْهَر، وبيئُهُ العتيقُ المُسْتَر؛^٦ الذي وَجَّهَ إليه الوُجوه، وفَرَضَ على عباده أن يَحْجُوه؛ نَظَرْتُ إليه المساجِدُ فِي كُلِّ حَمْس،^٧ وقَامَتْ إليه قِيَامَ الحَرِبَاءِ^٨ إلى الشَّمْس؛ بناهُ اللهُ بمكة على فضاءٍ زَكِيٍّ لم يَتَنَفَّسْ فِيهِ النَّاسُ،^٩ وخلا إِلا من جُحِرَ أو كِنَاس؛^{١٠} فلا الدُّنْيَا سَحَبَتْ عليه غُرُورَهَا، ولا النفوسُ نَقَلَتْ فِيهِ شُرُورَهَا، ولا الحَيَاةُ أَزَارَتْهُ بِاطْلَها وَزُورَهَا، لو شاءَ

^١ اللوم: التي تجمع الناس.

^٢ الحاشر: الجامع.

^٣ المثاب: مجتمع الناس بعد تفرقهم ومنه المثابة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾
والزمر: الأفواج المتفرقة بعضها في إثر بعض.

^٤ المبحر: راكب البحر. والمُصْجِر: المسافر في الصحراء، وعادة المبحر أن يهتدي إلى سبيله ببيت الإبرة «البوصلة»، وعادة المصحِر أن يهتدي إلى غايته بالنجوم، وقد شبه المسجد الحرام بالإبرة والنجم، بجامع هداية السائر الحائر فيهما.

^٥ الكفر: القرية.

^٦ المستر: المغطى بالأستار.

^٧ الخمس هنا: الصلوات.

^٨ الحرباء: حيوان يستقبل الشمس ويدور معها، ويتلون بلونها.

^٩ القضاء الزكي: الصالح، وتنفس الناس كناية عن وجودهم.

^{١٠} الكنائس: بيت الظبي في الشجر.

الله لَبَنَى بَيْتَهُ بِالشَّامِ بَيْنَ الْجَدَاوِلِ الْمُظَلَّةِ، وَالرُّبَى الْمَكَلَّةِ ١١ وَالغَصُونِ الْمَهْدَلَّةِ، وَالْقَطُوفِ الْمَذَلَّةِ، ١٢ وَلَوْ شَاءَ اللهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ لَرَفَعَ بَيْتَهُ عَلَى أُنُوفِ الْجَبَابِرَةِ، مَلُوكِ الْأَعْصِرِ الْغَابِرَةِ، وَفَوْقَ هَامِ آلِهَتِهِمْ وَهِيَ مَمَهَّدَةٌ مُنْصَدَةٌ، ١٣ فِي الْغُرَفِ الْمَشِيدَةِ، وَالْقَبَابِ الْمُمَرَّدَةِ، ١٤ وَلَكِنَّهُ — تَعَالَى — نَظَرَ إِلَى أُمِّ الْقُرَى، ١٥ فَرَأَى بِهَا ذُلًّا لِعِزِّ سُلْطَانِهِ، وَافْتِقَارًا إِلَى غِنَاؤِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَرَأَى خُشُوعًا يَسْتَأْنِسُ بِهِ الْإِيمَانَ، وَتَجَرُّدًا تَسْكُنُ إِلَيْهِ الْعِبَادَةَ، وَرَأَى انْفِرَادًا يَجْرِي فِي مَعْنَى التَّوْحِيدِ، فَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ حَوَارِيَّهٖ، ١٦ وَنَبِيَّهٖ وَخَلِيلَهُ وَصَفِيَّهٖ: أَنْ يَرْفَعَ بِذَلِكَ الْوَادِي رُكْنَ بَنِيَّتِهِ، ١٧ وَيُنْصَبَ بَيْنَ شِعَابِهِ ١٨ مَنَارَ وَحِدَانِيَّتِهِ، بُنْيَانًا قَامَ بِالضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ، ١٩ وَنَهَضَ عَلَى كَاهِلِ الْكُهُولَةِ وَسَاعَدِ الْفُنُوءَ، وَاشْتَرَكْتَ فِيهِ الْأَبُوءَ وَبِالْبُنُوءَ، فَكُنْتَ تَرَى إِبْرَاهِيمَ يَزَاوِلُ، ٢٠ وَإِسْمَاعِيلَ بَيْنَ يَدَيْهِ يُنَاوِلُ، حَتَّى بَنَى حَقًّا أَعْيَا الْمَاعُولِ، وَعَجَزَ عَنْهُ الَّذِي دَمَّرَ تَدْمَرَ وَأَبْلَى بَابِلَ، ٢١ فَانظُرْ إِلَى صَفَّاحِ الْبَاطِلِ كَيْفَ بَادَ، وَإِلَى آجُرِّ الْحَقِّ ٢٢ كَيْفَ أَفْنَى الْإِبَادَ؛ وَتَأَمَّلْ عَجَائِبَ صُنْعِ النَّيِّةِ، وَكَيْفَ ظَفَرَتْ لَبْنَةُ ٢٣ التَّوْحِيدِ بِصَخْرَةِ الْوَثْنِيَّةِ؛ بُنِيَ الْبَيْتُ وَإِذَا الْجَلالُ حُجِبَهُ وَأَسْتَارَهُ، وَالْحَقُّ حَائِطُهُ وَجِدَارُهُ، وَالتَّوْحِيدُ مَظْهَرُهُ وَمَنَارُهُ، وَالنَّبِيُّونَ

١١ الرُّبَى: الْأَرْضِي الْمُرْتَفَعَةُ. وَالْمَكَلَّةُ: الْمَتَوَجَّةُ، وَالْمَرادُ أَنَّهَا مُتَوَجَّةٌ بِالزَّهْرِ وَالْأَعْشَابِ.

١٢ الْقَطُوفُ: الثَّمَارُ، وَالْمَذَلَّةُ، الْمَدَلَّةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذَلَّلْتُ الْقَطُوفَ تَذْلِيلًا﴾.

١٣ الْهَامُ: الرِّعَوسُ. وَالْمُنْصَدَةُ: الْمُرْتَصِفَةُ، وَالْمَرادُ بِالْأَلْهَةِ هُنَا: الْأَصْنَامُ.

١٤ الْمُرَدَّةُ: الطَّوِيلَةُ الْمَلْسَاءُ.

١٥ مَكَّةُ الْمَكْرَمَةُ.

١٦ الْحَوَارِيُّ: الرَّسُولُ.

١٧ الْبَنِيَّةُ: الْكَعْبَةُ.

١٨ الشَّعْبُ: الطَّرِيقُ.

١٩ ضَعْفُ الْكُهُولَةِ وَقُوَّةُ الشَّبَابِ الْمَاتِلانِ فِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ.

٢٠ زَاوَلَ الشَّيْءَ: عَالَجَهُ.

٢١ تَدْمَرُ: قَلْعَةُ مَشْهُورَةٌ، وَبَابِلُ: بَلَدٌ بِالْعِرَاقِ يَنْسَبُ إِلَيْهِ السَّحَرُ وَالخَمْرُ، وَالَّذِي أَهْلَكَ «تَدْمَرَ» وَأَبْلَى هُوَ

الدَّهْرُ.

٢٢ الصَّفَّاحُ: الْحَجَرُ الْعَرِيضُ. وَالْأَجُرُّ: مَا يَبْنِي بِهِ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ «بِالطُّوبِ».

٢٣ اللَّبْنَةُ: مَا يَضْرِبُ مِنَ الطِّينِ لِلْبِنَاءِ.

المَسْجِدُ الحَرَامُ

بُنَاتُهُ وَعُمَارُهُ.^{٢٤} وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَبُّهُ وَجَارُهُ؛ اطَّلَعَتْ بِهِ «صَلَاحٌ»،^{٢٥} اطَّلَاعَ المَشْكَاءِ^{٢٦} بِالمَصْبَاحِ، فَزَهَرَ فَأَصَاءَ البَرَّاحِ، وَانْتَضَمَ الهِضَابَ وَالبِطَّاحَ؛ أَضْوَأَ مِنَ الشَّمْسِ ذِبَالَةَ، وَأَبْهَرَ مِنَ القَمَرِ هَالَةَ، فِي مَنَازِلِ الشَّرْفِ وَالجَلَالَةِ؛ قَدْ حَازَ اللهُ لَهُ مِنَ نِبَاهَةِ الذُّكْرِ، وَفَخَامَةِ الشَّانِ، مَا لَمْ يَحْزُ لَقَدِيمٍ مِنْ مَعَالِمِ الحَقِّ وَلَا حَدِيثٍ — بَرُّ العِبَادَةِ، وَفِضِيلَةُ الحَجِّ، وَشَرَفِ البَانِي، وَرَوْعَةُ العِتْقِ، وَجَلَالَةُ التَّارِيخِ؛ يَقُولُ العُؤَاةُ: لَوْ كَانَتِ الكَعْبَةُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَتْ كَبِيعِ النَّصَارَى فِي عَوَاصِمِ الغَرْبِ: رَفَعَةَ بِنَاءً، وَدَيِّبَاجَةً فَنَّ وَوَشِيَّ زُخْرُفًا!. وَأَقُولُ لِلْعُؤَاةِ: لَوْ تُرِكَتِ الكَعْبَةُ عَلَى فِطْرَتِهَا الأُولَى، فَلَمْ يُطَوَّلْ بِنَاؤُهَا، وَلَمْ تُزَيَّنْ بِالذَّهَبِ أَجْزَاؤُهَا، وَلَمْ تَتَعَدَّدْ فِي الرُّخْرُفِ أَشْيَاؤُهَا؛ لَكَانَ بَعْبَقْرِيَّتُهَا، وَبِرُوحَانِيَّتُهَا أَشْبَهَهُ؛ وَأَخْلَقَ؛ وَفِي تَقْدِيرِ قُدُسِهَا^{٢٧} غَايَةَ وَنَهَايَةَ.

^{٢٤} العمار: السكان.

^{٢٥} لقب من ألقاب مكة المكرمة.

^{٢٦} المشكاة: الطاقة.

^{٢٧} القدس: الطهر.

الشَّهَادَةُ

قصيدَةٌ عُلوِيَّةُ الرَّوِّيِّ، مَطَّلَعُهَا وَمَقْطَعُهَا النَّبِيُّ؛ كَلِمَةٌ هِيَ الدِّينُ، وَهِيَ كُنْهٌ^١ اليَقِينِ، وَهِيَ الْحَقُّ الْمُبِينُ؛ أَرْسَلَهَا الْأَذَانُ سَمَحَةً، فَفَرَّتْ فِي الْأَذْهَانِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ، وَلِمَ لَا؟ وَهِيَ الْحَقِيقَةُ الْعُرْيَانَةُ، وَالصَّبْحُ الَّذِي عَرَضَ عِيَانَهُ^٢، فَكَفَى الْعُيُونَ بُرْهَانَهُ وَبَيَانَهُ؛ كَانَتْ شِعَارًا^٣ الدَّاخِلِ فِي الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَجَوَازٌ^٤ إِلَى أَقْطَارِ التَّوْحِيدِ؛ وَلَمْ نَزَلْ مُقَدِّمَةَ الْكِتَابِ، وَفَاتِحَةَ الْخُطَابِ، وَمِفْتَاحَ الْبَابِ، وَحَافَةَ الْغَابِ؛^٥ إِذْ نُ سَهْلٌ، وَحِجَابٌ سَمَحٌ، وَسَاحَةٌ فَضْلٌ لَا تَحْجُبُ مَسْتَأْذِنًا، وَلَا تَتَّصَعَّبُ عَلَى مُعَالِجٍ، وَلَا تَضِيقُ بِنَزِيلٍ، وَمِنْ عِبْقَرِيَّةِ الشَّهَادَةِ — أَمَاتَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَلَيْهَا — إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ طَالَمَا أَوْقَعَ فِي نَفُوسِ الْجَمَاعَاتِ أَنَّهَا أَفْضَلُ عَمَلِ الْعَبِيدِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَأَنْهَارٌ بِمَا قَامَتْ مَقَامَ الْأَدَاءِ عَنْ سَائِرِ الْفَرَائِصِ، حَتَّى فَرَطَ الْمَفْرُطُونَ، وَهُمْ عَلَيْهَا يَتَّكِلُونَ، وَتَكَثَّرَ مِنَ الْخَطَايَا الْمَذْنُوبُونَ، وَهُمْ يَرْجُونَ عِنْدَهَا النِّجَاةَ وَيَأْمَلُونَ. إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ هَوَّنَتْ لِقَاءِهِ، وَقَلَّتْ هَوْلَ مَا وَرَاءَهُ، وَجَعَلَهَا الْخَائِفُ أَمْنَهُ وَرَجَاءَهُ، وَالْقَلِيلُ الْعِزَاءِ أَسْوَتَهُ^٦ وَعِزَاءَهُ. وَقَدَّمَهَا الْمُقْلُ^٧» بَيْنَ يَدَيْهِ عَمَلًا يَرْجُو جِزَاءَهُ.

^١ الكنه: الأصل والغاية.

^٢ العيان: الشخص.

^٣ الشعار: ما يعرف عند المولدين (بسر الليل).

^٤ الجواز: صك المسافر.

^٥ الحافة: الجانب، والمراد بالغاب هنا: مأوى الحق والتوحيد.

^٦ الأسوة: ما يتعزى به الحزين.

^٧ قليل الحسنات والصلحاحات.

الصَّلَاةُ

الطهارة: كمالُ أدبِ الصَّلَاةِ، وتَمَامُ الخِدْمَةِ والتَّعْظِيمِ لله، عند تَوَجُّهِ العَبْدِ إِلَى مَوْلَاهُ. شُرِعَتْ وَسِيلَةٌ، وَسُنَّةٌ جَمِيلَةٌ، وَصَالِحَةٌ وَفَضِيلَةٌ؛ حُكْمٌ حِكْمَتُهُ لَا تَتَمُّ، حَتَّى يَنْتَظِمَ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ؛ فَإِنْ جَمَعْتَ نَقَاءَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، فَأَنْتَ الَّذِي صَلَّى لَهُ^١ وَهُوَ طَاهِرٌ. وَلَوْ قَصُرَتْ الطَّهَارَةُ عَلَى وَجْهِ تَغْسَلِ، وَأَرْسَاغِ^٢ تُبَلَّلِ، وَثِيَابِ تَنْظِفُ وَتُجَمَّلِ؛ لَكَانَ الْمَيْتُ أَطْهَرَ مِنَ الْحَيِّ؛^٣ فَيَا أَصْحَابَ الْوُضُوءِ غَسَلْتُمُ الْجَوَارِحَ،^٤ فَهَلْ غَسَلْتُمُ الْجَوَانِحَ؟ وَرَحَضْتُمُ^٥ الْأَطْرَافَ، فَهَلْ رَحَضْتُمُ الْأَجْوِافَ؟ طَهَّرْتُمُ الرَّاحَ مِنَ الْأَنْجَاسِ،^٦ فَهَلْ طَهَّرْتُمُوهَا مِنْ أَشْيَاءِ النَّاسِ؟، وَنَطَّفْتُمُ مِنَ الطَّرِيقِ^٧ الْأَقْدَامَ، فَهَلْ نَطَّفْتُمُوهَا مِنْ سَبَلِ الْحَرَامِ، وَمَسَالِكِ الْإِجْرَامِ؟ وَتَلَكَ الْوُجُوهَ الْمَسْوُوحَةَ بِالْمَاءِ، هَلْ تَرَقَّرَقَ فِيهَا الْحَيَاءُ؟ وَهَلْ نَقِيَتْ مِنْ وَضْرِ^٨ الرِّيَاءِ؟

^١ الهاء ضمير الشأن.

^٢ جمع رُسْغٍ: وهو المفصل ما بين الساعد والكف.

^٣ لأن غسل الميت تام وكفنه من ثياب جدد.

^٤ جمع جارحة: وهي العضو المكتسب من أعضاء الإنسان.

^٥ غسلتم.

^٦ الراح جمع راحة: وهي الكف.

^٧ المراد بالطرق هنا: ما يعلق بالقدم من أقدارها.

^٨ الوضر: الوسخ.

الصلاة: لو لم تَكُنْ رأسَ العبادات، لَعُدَّتْ من صالحة العادات؛ رياضة أبدان، وطهارة أردان،^٩ وتهذيبُ وجدان، وشتى فضائلَ يَشِبُّ عليها الجوارِي والولدان. أصحابُها هم الصابرون، والمتأبرون، وعلى الواجب هُم القادرون، عَوَّدَتْهم البُكور، وهو مِفْتَاحُ بابِ الرزق، وخَيْرٌ ما يُعالج به العَبْدَ مناجاةُ الرازق، وأفضَلُ ما يروُدُ به المخلوق التَّوَجُّهُ إلى الخالق؛ ولهم إليها بعد البُكورِ رواح؛ فإذا هي تصرفُهم عن دواعي الليل ومغرياتِه، وتعصمُهم فيه من عوادي الفِراغِ ومُغوياتِه. والليلُ خلواتٌ وشهوات، وبيتُ الغوايات.

وتجزئةُ الوقت مع الصلاة ملحوظة، وقيمتُه عند الذين يُقيمونها مَحْفُوظة، عَوَّدَتْهم أن يذكروه، ويُقدِّروه، وأن يسوسوه في أعمالهم ويدبِّروه، والوقتُ ميزان المصالح، وملاك الأمور، ودولابُ^{١٠} الأعمال.

انظُرْ جلالَ الجُمع، وتأملْ أثرها في المُجْتَمَع، وكيف ساوَتْ العليَّةَ بالزَّمع؛^{١١} مسَّت الأرض الجباه، فالناس أكفاءٌ وأشباه، الرعية والوُلاة، شرعٌ^{١٢} في عتبةِ الله؛ خرَّ الجمعُ للمناخِر؛ فالصَفُّ الأوَّلُ كالأخِر، لم يرفعَ المتصدِّرُ تصدُّرُه، ولم يضعَ المتأخِّرُ تأخُّرُه.

^٩ الردن: الغزل أو الخز، والجمع أردان، والمراد بها هنا: الثياب.

^{١٠} الدولاب: الآلة الدائرة.

^{١١} الزمع: الرعاع.

^{١٢} أي سواء.

الصَّوْمُ

جَرَمَانُ مَشْرُوعٌ، وَتَأْدِيبٌ بِالْجُوعِ، وَخُشُوعٌ لِلَّهِ وَخُضُوعٌ، لِكُلِّ فَرِيضَةٍ حِكْمَةٍ، وَهَذَا الْحُكْمُ ظَاهِرُهُ الْعَذَابُ وَبَاطِنُهُ الرَّحْمَةُ، يَسْتَتِيرُ الشَّفِيقَةُ، وَيَحُضُّ عَلَى الصَّدَقَةِ؛ يَكْسِرُ الْكِبْرَ، وَيُعَلِّمُ الصَّبْرَ، وَيَسُنُّ خِلَالَ الْبِرِّ؛ حَتَّى إِذَا جَاعَ مَنْ أَلْفَ الشُّبْعِ، وَحُرِمَ الْمُتَرَفُّ أَسْبَابَ الْمَتَعِ، عَرَفَ الْجَرَمَانَ كَيْفَ يَقَعُ، وَالْجُوعَ كَيْفَ أُلْمُهُ إِذَا لَدَعُ.

الزَّكَاةُ

حزب^١ الاشتراكية، وحزب البلشفية.

أَيُّهَا النَّاسُ:

أَمَرَ اللَّهُ فَصَلَيْتُمْ، وَنَهَى الْمَالَ فَمَا زَكَّيْتُمْ؛ فَرَّقْتُمْ بَيْنَ الْخُمُسِ^٢ وَكُلُّهَا حُكْمُ الْوَاحِدِ؛ فَلِكُلِّ أَلْفٍ مُصَلٍّ مِزْكٌ وَاحِدٌ! اسْتَسْهَلْتُمْ فَأَخَذْتُمْ، وَاسْتَصْعَبْتُمْ فَنَبَذْتُمْ؛ فَلَوْ دَخَلَ الْمَالُ فِي الصَّلَاةِ، لِأَقْفَرْتُمْ مِنْكُمْ مَسَاجِدَ اللَّهِ! وَلَوْ غُرِّمَ أَحَدُكُمْ عَلَى الشَّهَادَةِ، لَكَانَ بِهِ عَنِ نَطْقِهَا زَهَادَةٌ!^٣ أَعْلِمْتُمْ أَنَّ الزَّكَاةَ قُرُوضٌ؟^٤ وَأَنَّهَا وَقَاءُ الْأَعْرَاضِ وَالْعُرُوضِ؟^٥ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِالْعَبَثِ الْمَفْرُوضِ؟ هِيَ مَالُ الْفَقِيرِ خَلَسْتُمُوهُ،^٦ وَرَزَقُ الْمَحْرُومِ حَبَسْتُمُوهُ، وَحَقُّ الْعَاجِزِ فِي الْحَيَاةِ بَخَسْتُمُوهُ، وَحُكْمُ اللَّهِ الَّذِي أَغْنَاكُمْ قَدْ دُسْتُمُوهُ؛ تَقْرَضُونَ^٧ الْوَلَاةَ، وَلَا تَقْرِضُونَ اللَّهَ، وَتُنْفِقُونَ تَمَلِّقًا لِأَهْلِ الْجَاهِ، وَلَا تُنْفِقُونَ تَعَلَّقًا بِالنَّجَاةِ.

^١ الحزب: النصير.

^٢ المراد بالخمس: أركان الإسلام.

^٣ زهد فيه زهادة: رغب عنه.

^٤ القروض: جمع قرض، وهو ما أسلفت من إساءة أو إحسان.

^٥ الوقاء: الدرع. والعروض: الأمتعة. والأعراض: مواضع المدح والذم من الإنسان.

^٦ خلس الشيء: أخذه مختاتلة.

^٧ أقرضه: أعطاه قرضًا.

الحجُّ

مَوْكِبُ الْإِسْلَامِ وَمَظْهَرُهُ، وَلُبَّابُ حَسْبِهِ وَجَوْهَرُهُ، وَمَوْسَمُهُ الْحَرَامُ أَشْهُرُهُ. مِهْرَجَانُهُ الْعَظِيمُ، وَعُرْسُهُ الْفَخِيمُ، وَنِدْيُهُ^١ الْكَرِيمُ، وَالنَّظْمُ الَّذِي قَرَنَ فِيهِ الدُّنْيَا إِلَى دِينِهِ الْقَوِيمِ، فَجَعَلَهُ لَهَا صِلَاحًا وَعِمَارَةً، وَمَلَأَهَا بِيَمِينِهِ نِمْاءً وَيَسَارَةً^٢، وَأَفَاضَ بَرَكَاتِهِ عَلَى التِّجَارَةِ؛ وَسَخَّرَهَا لخدمَتِهِ، وَإِظْهَارِ دَعْوَتِهِ، وَجَمْعِ كَلِمَتِهِ، وَتَوْثِيقِ عُرْوَتِهِ؛ فَإِذَا أَظَلَّتْ أَيَّامُ الْحَجِّ الْمُبَارَكَاتِ نَظَرْتَ إِلَى الْبِلَادِ فَرَأَيْتَ أَسْوَاقًا مَاجَتْ، وَمَتَاجِرَ رَاجَتْ، وَمَطَايَا مِنْ مَرَابِضِهَا اِهْتَاجَتْ؛ وَرَأَيْتَ الْحِجَازَ مُهْتَزًّا الْمَنَاكِبِ، يَمُوجُ الْمَوَاكِبِ؛ مَفْتَرًّا الْمَبَاسِمِ، فِي وَجْهِهِ الْمَوَاسِمِ؛ أَخْلَفَهُ الْغَيْثُ^٣ فَمَطَرَ الْذَهَبَ، وَبَيَّسَ الزَّرْعَ فَطَعِمَ الرُّطْبَ؛ أَزْوَادٌ تُعَدُّ، وَرِحَالٌ تُشَدُّ، وَشُرْعٌ تُمَدُّ، وَحَاجَاتٌ تَنْشَأُ وَتَسْتَجِدُّ؛ وَأُمَمٌ أَتَوْا مِنْ نَوَاحِي الْبِلَادِ يَضْعُونَ التُّحَفَ الْمَجْلُوبَةَ، وَيَأْخُذُونَ الْأَجْرَ وَالْمُتَّوَبَةَ.

فِي أَيُّهَا الْمَعْتَزِمُ حَجَّ الْبَيْتِ، الْمُسْمَّرُ لِأَدَاءِ الْفَرِيضَةِ: لَقَدْ أَطَعْتَ، فَهَلْ اسْتَطَعْتَ؟ وَأَجَبْتَ فَهَلْ تَأَهَّبْتَ؟ وَهَلْ عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ شَرَعُهُ السَّمَاةَ، وَأَنَّ رَبَّ الْبَيْتِ وَاسِعُ السَّاحَةِ؟ يُعْفِي الْمَرِيضَ حَتَّى يُعَافِيَ، وَيُقِيلُ الْمُعْدِمَ حَتَّى يَجِدَ، وَلَا يُوَاخِذُ أَخَا الدِّينِ حَتَّى

١ الندى: المجلس.

٢ اليسارة: الغنى.

٣ الغيث: المطر. وأخلفه: لم ينزل به.

٤ الأزواد: جمع زاد: وهو طعام السفر.

يَقْضِي دَيْنَهُ، وَلَا يُنْكَرُ عَلَى الْخَائِفِ الْقَرَارَ^٥ حَتَّى تَأْمَنَ السَّبِيلَ مِنْ وِبَاءٍ مَهْتَاجٍ، أَوْ لَصُوصٍ
 قَدْ أَخَذُوا الْفَجَاجَ،^٦ أَوْ حُكُومَةِ جَائِرَةٍ تَبْتَزُّ الْحُجَّاجَ؟
 كُتِبَ الْكِبَائِرُ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ فِي بَيْتِهِ، وَبَيْنَ وَفْدِهِ، بِمَالٍ خَلَسَتْهُ مِنْ أَحَدِ اثْنَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ
 حَبًّا جَمًّا، الْيَتِيمَ — وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مَالَهُ نَارٌ، وَأَنَّهُ نَحَسُ الدَّرْهَمِ نُحَاسِي الدِّينَارِ.^٧ وَالْفَقِيرَ
 — وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَهُ فِي مَالِكَ حَصَّةً سَمَّاهَا الزَّكَاةَ، فَتَغَابَيْتَ يَا مُخَادِعَا اللَّهَ، وَخَرَجْتَ بِهَا
 تَحُجُّ لِلتَّظَاهِرِ وَالْمِبَاهَاةِ؛ وَهَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْكَ مَالًا وَنَفَقَةً الْمَطْلُوقَةِ، مِنْ مَطْلٍ
 مُعَلَّقَةٍ؛ وَذُو الْقُرْبَى وَرَاءَكَ جَائِعٌ، وَالْوَلَدُ طَرِيدٌ الْمَدَارِسِ ضَائِعٌ؛ وَتِجَارَتُكَ مُخْتَلَّةٌ، وَأَمَانَتُكَ
 مُعْتَلَّةٌ؛ وَجَارُكَ الضَّعِيفُ يَضُجُّ مِنْ حَيْفِكَ، وَخَصِيمُكَ الْأَعَزْلُ يَشْكُو سَطْوَةَ سَيْفِكَ؛ فَإِنْ
 لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ مِمَّا إِلَيْهِ فَسِرْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ، وَحُجَّ بَيْتَ اللَّهِ، وَارْجِعْ بَرِضْوَانٍ مِنْ
 اللَّهِ.

^٥ المكث في داره.

^٦ الفجاج: الطرق الواسعة بين الجبال.

^٧ المراد بالدرهم النحاس: أنه شؤم على كل من اغتصبه. والدينار النحاس: الذي لا قيمة له؛ لأنه حرام،
 والحرام لا يدوم.

خطيبُ المساجد

يا مُرشدَ العابد، وراثةَ الهوى الشارد: أعلمتَ أيَّ مقامٍ أقمتَ، ولأيِّ بلاءٍ قُدِّمتَ؟ إنما نُدبتَ للوعظِ والإرشاد، وتعليمِ العليَّةِ والسَّواد، أدبَ المعاشِ والمعاد،^١ وخَلفتَ الخلفاءَ على تلك الأعواد؛^٢ الأذانُ لك مُرْهَفةٌ، والأذهانُ إليك مُتَشَوِّفةٌ، فماذا عندَكَ للأتقياء، من الأغنياء؛ ولكلِّ مُمَوَّلٍ، في الصَّفِّ الأوَّل؛ من إشارةٍ إلى الذهبِ المدَّخَر، والقريبِ الضَّجِر، والوارثِ المنتظر؛ وإلى الخيرِ وجمعياتِهِ والبرِّ وقضياتِهِ؟ وماذا أعددتَ للتاجر، من الوعظِ الزَّاجِر، تحضُّه فيه على الأمانة، وتُحدِّثُهُ عواقبَ الخيانة، وتُوصيه بسُمعتهِ ضناً وصيانةً؟ أو الذي بذلتَ للعاملِ والصانع، من لفظِ رائعٍ ووعظٍ جامعٍ، في السُّلوكِ الحَسَنِ والدَّعوةِ إليه، وإتقانِ العملِ والحضِّ عليه؟ وهل ذكرى للعامةِ أن ضربَ النَّسوةِ، ضربٌ من القسوةِ؟ وأنَّ البغيَ بالطلاقِ، يميتهُ الدينُ والأخلاقُ؟ وأنَّ الطفلَ من حقه أن يهدَّبَ، لا أن يُضربَ ويُعذَّبَ، وأن يُكسبَ عليه، لا أن يكسبَ هو على أبويه؟^٣ وأنَّ التَّيسَ لو عَقَلَ ما اتَّخَذَ نَعجتين، فكيف يتزوَّجُ الفقيرُ العاقلُ اثنتين؟! أم أنتَ كما زعموا ببغاءٍ لم تحفظُ غيرَ صوتِ تردُّدهِ إلى الموتِ، كلماتٌ محفوظةٌ، في كلِّ مكتوبةٍ مُلْفوفةٍ، سيفٌ من خشبٍ، وخطوبٌ في صورةِ حُطْبٍ؟

١ المعاد: الآخرة.

٢ الأعواد: الأخشاب، والمراد بها هنا المنابر.

٣ المراد بهذه الجملة: أن الآباء عليهم أن يعملوا؛ حتى يمهّدوا لأبنائهم سبيل العيش والحياة، لا أن ينتظروا السعي من أبنائهم وهم أطفال.

الطَّلَاقُ

أزمةٌ تمنعُ أزمات، ومِلمةٌ تدفعُ مِلمات؛ دواءٌ ساءَ استعمالُهُ فصارَ هو الدواء، ودرعٌ للتوقِّيِ عادتُ آلهَ اعتداء؛ نَظْمٌ على غيرِ أصولِهِ مُتَّبِعٌ، عِبَتْ بهِ الجَهْلُ حتى انقطع، وضاعت على الشارعِ حِكْمَةُ ما شرَع؛ حلالٌ عليه بِشَاعَةُ الحرام، وحقُّ يشرُهُ^١ «إليه اللئام، ويكرهه عليه الكرام؛ منعَ الله بهِ الظلم، رأفةً بكم ورحمةً؛ فما بالكم قلبتُم الحُكْم، وعكستُم الحِكْمَةَ؛ تختَلِقون الرِّيب، وتُطلُّون على غضب، وتُسرِّحون بلا سبب؟

أيُّها الناس: إن كان الكتابُ تسمَّح^٢، فإن الحديثُ قد لَمَّح^٣؛ هَبُوا أن الشارعَ أطلقَ الطلاق، اتكالا على الدين والأخلاق؛ أليس الموقِفُ موقِفَ حَدَرٍ، والمسألةُ فيها نظر؟ أمرٌ تبعاته على ضمائركم، وسوءُ استعماله على سرائركم، وفضيحةٌ بعضكم به واقعةٌ على سائركم!،^٤ أولئك أممُ النصرانيةِ أصحابُ الحضارةِ الحاضرة، حرَّم الطلاقَ دينُهُم، ثم حلَّته قوانينُهُم، ولكن في دائرةِ الحقِّ، ووجوهِ الرفق، وبإشرافِ قضاةٍ يحْمون نُظْمَ الزواج من عبثِ الخاصة، وجهالةِ العامَّة.

^١ شره إلى الطعام وعليه. اشتد حرصه عليه.

^٢ تسمح: تساهل.

^٣ يشير إلى الحديث الشريف: «إن أبغض الحلال عند الله الطلاق».

^٤ إذا انتشرت عادة الطلاق في أمة، فليست الفضيحة واقعة على رءوس المطلقين وحدهم، ولكن الأمة مأخوذة بها جميعًا، والسمعة السيئة لا تعرف مذنبًا من بريء.

الْبَحْرُ الْأَبْيَضُ الْمَتَوَسِّطُ

سَيِّدُ الْمَاءِ، وَمَلِكُ الدَّامَاءِ،^١ مَهْدُ الْعِلْيَةِ الْقَدَمَاءِ؛ دَرَجَتِ الْحِكْمَةَ مِنْ لُجَجِهِ،^٢ وَخَرَجَتِ الْعَبْقَرِيَّةُ مِنْ ثَبَجِهِ،^٣ وَنَشَأَتْ بِنَاتُ الشَّعْرِ فِي جُزْرِهِ وَخُلُجِهِ؛ بَدَتِ الْحَقِيقَةُ لِلْوُجُودِ مِنْ يَبَيْسِهِ وَمَائِهِ، وَجَرَّبَ نَاهِضُ الْخِيَالِ^٤ جَنَاحِيهِ بَيْنَ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ؛ الْعُلُومُ نَزَلَتْ مُهَوِّدَهَا مِنْ ثَرَاهِ، وَالْفَنُونُ رَبَّيْتُ فِي حِجَالِ رُبَاهِ،^٥ وَالْفَلَسْفَةُ تَرَعْرَعَتْ فِي ظِلِّهِ وَذَرَاهِ؛^٦ «بِنْتَاءُورُ» وَوَلَدَ عَلَى عَيْرِهِ،^٧ وَ«هُومِيرُ» مُهَّدَ بَيْنَ سَحْرِهِ وَنَحْرِهِ،^٨ وَنَحَّتِ الْإِلْيَاذَةُ^٩ مِنْ صَخْرِهِ، وَ«هَيْرُودُوتُ»^{١٠} دَوَّنَ مُتُونَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَ«الْإِسْكَانْدَرُ» أَنْتَهَى إِلَيْهَا بِفَتْحِهِ وَنَصْرِهِ.

^١ الدَّامَاءُ: الْبَحْرُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْمِيَاهُ.

^٢ اللَّجَجُ: جَمْعُ لَجَّةٍ. وَهِيَ مَعْظَمُ الْمَاءِ.

^٣ الثَّبَجُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: وَسَطُهُ وَمَعْظَمُهُ.

^٤ النَّاهِضُ: فَرَخُ الطَّائِرِ إِذَا نَشَرَ جَنَاحِيهِ وَتَهَيَّأَ لِلطَّيْرَانِ.

^٥ رَبَّيْتُ الْفَنُونِ: أَيِ نَشَأَتْ وَنَمَتِ. وَالْحِجَالُ: الْخُدُورُ — الرِّبَا — جَمْعُ رِبْوَةٍ. وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ.

^٦ الذَّرَا: الْمَلْجَأُ.

^٧ بِنْتَاءُورُ: شَاعِرُ مِصْرَ الْقَدِيمِ. وَعَبْرَ الْبَحْرِ: شَاطِئُهُ.

^٨ هُومِيرُ: أَقْدَمُ شِعْرَاءِ الْيُونَانِ. وَالسَّحْرُ وَالنَّحْرُ. هُمَا الرِّئَةُ، وَمَوْضِعُ الْقَلَادَةِ عَلَى الصَّدْرِ.

^٩ الْإِلْيَاذَةُ: دِيْوَانٌ مِنْ شِعْرِ هُومِيرِ، جَمْعُ فِيهِ مَفَاخِرُ الْأَبْطَالِ الْقَدَمَاءِ.

^{١٠} هَيْرُودُوتُ: هُوَ الْمُؤَرِّخُ الْمِصْرِيُّ الْمَشْهُورُ.

الموسيقى دَبَّتْ في أحناء^{١١} هياكله، وشبَّتْ في أفياء خمائله؛^{١٢} ثم لم يزل بها ترسل^{١٣} الرُّهبان، وترتلُّ الأحبار والكهَّان، حتى جاوزت الحناجر إلى المعازف، فنزلت اليراع المطرب^{١٤}؛ والنحاس الهاتف؛^{١٥} لم تخلُ تُكْنَةُ^{١٦} من بوق، أو طبلٍ مدقوق؛ ولم يخلُ كوخٌ من يراعٍ مثقوب، ولا قصرٌ من وترٍ مَضْرُوب.

وعلى أديم الأبيض المتوسِّط مثنى المثالِ الأوَّل،^{١٧} وبحجارتِه وقف فتخيل؛ فلانَ لبنائه الحجر، ودانَ لمنحاته^{١٨} الصخر، حتى زينَ الزُّونَ^{١٩} بالبديع والغريب، ونثرَ الدُّمى على المحاريب،^{٢٠} وجاء في الفنِّ بالأعاجيب؛ صنَّعَ أبا الهول، فجاءَ بالهولَ والزُّولَ؛^{٢١} كان ذلك حينَ سائرُ المعمور مجاهل، والناسُ جهَّال؛ عالمٌ غافل، يهيمُ في أعْقال.^{٢٢}

فيا ناشئ الكِنانة:

إذا وقفتَ على لجةِ «الرمل»، أو نقلتَ القدمَ على رملةِ «المكس»؛ في أصيلٍ لدَّتْ حواشيه، وحلَّى جلبابَهُ بالذهبِ واشبهه، وفضاءً اصفرَّ من نعيِّ الشمس

١١ الأحناء: الجوانب.

١٢ الأفياء: الظلال، والخمائل: جمع خميلة: وهي مكان يلتف فيه النبات.

١٣ الترسل: الترفق.

١٤ اليراع: القصب الذي يزمر به الراعي والمطرب: الذي يرجع الصوت ويحسنه.

١٥ هتاف النحاس: ترجيع الصوت في أبواقه.

١٦ التكنة: معسكر الجند.

١٧ أديم البحر: صفحته. والمثال — بالتشديد — صانع التماثيل، ولعل المؤلف أوَّل من نبه إلى استعمال هذا اللفظ الدفين.

١٨ المنحات: آلة النحت.

١٩ الزون: مجمع الأصنام.

٢٠ الدمي: جمع دمية وهي الصورة المزينة أو الصنم المنقوش. والمحراب: صدر البيت أو أكرم مواضعه، والجمع محاريب.

٢١ الزول: العجب.

٢٢ الأعغال: جمع غفل، والأرض الغفل: التي لم ينصب عليها علم ولم تقم عليها عمارة.

الْبَحْرُ الْأَبْيَضُ الْمُنَوَّسُ

ضاحيه،^{٢٢} وَقُرِّبَتْ لَهَا الْأَكْفَانُ مِنْ زَعْفَرَانِ نَوَاحِيهِ،^{٢٤} فَتَبَصَّرَ! هَلْ تَرَى غَيْرَ
سَاحِلٍ طَيِّبٍ الْبُقْعَةَ، وَأَدِيمٍ جَيِّدِ الرُّقْعَةَ؟ وَهَلْ تُحَسُّ غَيْرَ بَحْرِ ضَاحِكِ الْمَاءِ.
مُتَهَلِّلِ السَّمَاءِ، حُلُوِّ بِشَاشَةِ الْقَضَاءِ؛ يَصْحَبُ الصَّخْوُ، وَيَسْحَبُ الزَّهْوُ،^{٢٥} وَيَلْهُوُ
وَمَا عَرَفَ اللَّهْوُ،^{٢٦} وَخَرِيرُهُ تَسْبِيحٌ وَمَا هُوَ بَلْغُو؟^{٢٧}

لَأَبَائِكَ عِنْدَهُ — مُنْذُ مَا جَتِ أَمْوَاجُهُ، وَلَجَّتْ لِجَاجِهِ،^{٢٨} وَهَدَرَ عَجَاجِهِ،^{٢٩} وَأَنْشَى
لِلرِّيَاحِ شِرَاعَهُ وَسَاجَهُ^{٣٠} — جِوَارُ الْأَكْرَمِينَ، وَصَحْبَةُ الْمُحْسِنِينَ، وَكَنْفُ السَّمَّاحِ الْخَيْرِينَ:
شَمْسٌ مُتَوَقِّدَةٌ، وَطَبِيعَةٌ مُتَوَدِّدَةٌ، وَلَجَّةٌ غَيْرُ مُتَمَرِّدَةٍ، وَغَيْرُهُ مِنَ الْبَحَارِ نَمِيمِ الْجِوَارِ،
لِنَيْمِ النَّجَارِ؛^{٣١} ضَبَابٌ مَخِيْمٌ وَسَحَابٌ مُدِيمٌ؛^{٣٢} أَعَاصِيرٌ مُرْسَلَةٌ، وَصَوَاعِقُ مُنْزَلَةٌ؛ زَمْنٌ
مُضْطَرِبُ الْفُصُولِ، وَطَبِيعَةٌ تَخْتَلِفُ وَتَحُولُ، كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولِ.^{٣٣}

^{٢٢} ضاحيه: ظاهره وبدييه. ونعي الشمس: مجاز يراد غروبها. واصفرار الفضاء لنعي الشمس استعارة
شبهت فيه الشمس بميت، وشبه الفضاء بمن أصيب فيه، فانتابه من صفرة الروع ما ينتاب الثالك
المرزوء.

^{٢٤} الأكفان من زعفران: كناية عن صفرتها، ولا يزال المؤلف مستمرا في مجازه الذي ابتدأه في الجملة
السابقة.

^{٢٥} الزهو: العجب والتخايل.

^{٢٦} لهو البحر: تلاعبه بما على صفحته من السفن.

^{٢٧} اللغو من الحديث: الباطل، والمراد بتسبيح الحرير: ما يلقي في النفس من أثر اليقين في صوته
العجيب.

^{٢٨} اللجاج: جمع لجة وهي معظم الماء.

^{٢٩} العجاج. من الماء: ما سُمع له عجاج.

^{٣٠} الساج: شجر عظيم ينبت في الهند، وخشبه رزين أسود لا تكاد الأرض تلبيه، والمراد به هنا: ما
يصنع منه سفين.

^{٣١} النجار: الأصل.

^{٣٢} سحاب مديم: أي ممطر.

^{٣٣} تلون: أصلها تتلون، ثم حذفت التاء للتخفيف، والغول: من يتلون ألوانا مختلفة من الجن والسحرة.

تلك اللّجّة — أيّها الناشئ — هي من أوطانك عنوانُ الكتاب، ومضراعُ الباب، ووجهُ الخميّة، وظاهرُ المدينة، وعورَةُ الحصن؛ وإنّ قومًا لهم على البحرِ مُلك، وليس لهم فيه فلك: لِقَوْمٍ دَوْلَتُهُمْ واهية السُّلك، وسلطانهم — وإن طال المدى — إلى هُلك!

ويا أيّها الأبيض الأعزُّ سلامٌ، وإن أنزلتُنَا عن صَهَوَتِكَ الأيام، وأبدلتُنَا من سلطانك الخافق الأعلام، بممالك من كلام، ودُول من أمانِيٍّ وأحلام! ويا عَرشَ الأبوّةِ ثناء، وإن تَلَّكَ الأبناء، ثم لم يُحسِنوا البناء؛ أين دُولٌ كانت مطالعَ أنوارك، ومعاصم سُوّارك، وما الذي نأى بجوارِها^{٣٤} عن جِوارك، وهوى بسوارِها^{٣٥} في أغوارك؟ أين الفراعنة وما جدّفوا من بُروجٍ مشيّدَةٍ،^{٣٦} والبطالسة وما مدّوا من شُرْعٍ كالصُّروح الممرّدة؟^{٣٧} وأين الشُّونات الأيوبيّة،^{٣٨} والبوارج العلوّية؟^{٣٩} أهيهات! أزرِي الدهرَ بالإسكندريّة، فحجَبَ ذلك المنار،^{٤٠} ونصبَ على الفنار، وأين الليل والنهار، وأين الظلمات من الأنوار؟ ذلك كان أضوأ هالة،^{٤١} وأسطع على التمكن في الأرضِ دلالة، وأضفى على مناكب البرِّ والبحرِ جلاله؛ يهتدي به الداخِلُ والخارج، ويستأمنُ الدابُّ في جمَاهُ والدارج، وتنيفُ^{٤٢} عليه البرُوجُ وتنيفُ به البوارج؛ وهذا^{٤٣} سراجُ بيت، وذباله زيت، وشعاعُ كنفَسِ المحتَضِرِ حيٍّ ميّت!

مُلْكنا الواسِعُ من ورائه بابٌ ولا بواب، وسُدّة ولا حجاب، غابٌ ولا ناب^{٤٤} ووكرٌ ولا عُقاب؛ تعاقبت عليه حُكومات أَلقت السُّلاح، وألغت الإصلاح؛ تقول فتجدُّ وتعمل فتَهزل، ولا تحسنُ من سياسة الملكِ غيرَ أن تولّي وتعزل، وتجبى القطنَ ولا تفكرُ في المغزل! تخايلُ بالبحريّة والوزير، وتأتي قبل الماء بالوزير!!

^{٣٤} الجوّاري: السفن.

^{٣٥} السّواري: عمد ينصب عليها الشراع.

^{٣٦} البروج المشيّدَة هنا: يراد بها السفن الضخمة. والتجديف: تسيير السفن بالمجداف.

^{٣٧} الشُّرْع: القلوع. وتمريد البناء: تمليسه وتسويته.

^{٣٨} الشونات: هي سفن الحزب، وقد كان لبني أيوب منها أسطول عظيم.

^{٣٩} التي أنشأها محمد علي باشا جد الأسرة المالكة.

^{٤٠} المنار: الذي أقامه البطالسة في الإسكندرية، فكان سراجها الوهاج.

^{٤١} هالة القمر: دارته، والإشارة هنا للمنار.

^{٤٢} تنيف: تشرف.

^{٤٣} الإشارة للنار الموجودة الآن.

^{٤٤} الناب: يطلق على الأسد، من تسمية الكل باسم جزئه.

صَفَةُ الظَّبِّيِّ

عروسُ البِيدِ، الفاتن كالغيد، بالمقلة والجيد، الفروقة الرَّعِيدِ،^١ وصفته فقلت: عينان سوادُهُما داج، وبياضُهُما عاج، وإنسانُهُما حائر ساج، في رأس كَأَنَّهُ قدم الكَعَابِ، أو كَأَنَّهُ خزفيٌّ من الأكواب، رُكَّبَ في عنق كإبريق الشراب؛ وله روقان، كَأَنَّهُما نَصْلان صَدِئان، وكَأَنَّ إبرتِيهِما مِرود،^٢ انتشر عليه الأثمد،^٣ وكَأَنَّ قوائمه السمر الخفيف، وكَأَنَّ زجاج أرماجها الأظلاف. كل ذلك في إهاب أغبر اللون كَدِر، كَأَنَّهُ الثوب السويِّ المُنْقَدِر، ليس بفضفاض ولا بالمنحسر؛ وإذا عدا فَسَهُم، وإذا أخذهُ المدى فَوَهُم؛ وثباتٌ تنتظم الربوة والحفرة تُثَبَّت وجودَ الطَّفْرة، وإذا قام على ظَلْفِيهِ، وأرهف للرياح حرتيه،^٤ وشرع في السماء روقيه، خَلَّتْهُ دُمِيَّة مِحْرَاب، أو شُجَيْرَة عليها تُراب.

^١ الفروقة الرعيد: الشديد الفزع الجبان.

^٢ الميرود: الميل الذي يكتحل به.

^٣ مسحوق الكحل.

^٤ أي أذنيه.

صَفَةُ الْأَسَدِ

طاغيةُ الصحراء، وجَبَّارُ العراء، وأَجْرَأُ من وطىءِ الغبراء، عَرَّشه غابته، وحجابه مهابتُهُ، والوحدة مجلسه وصحابته؛ ابْنُ الصحراءِ البكر نحتت أجلاذَه من صخرها، واستوقدت بأسه من حرِّها، وطبعته على انقباضها وكبرها؛ وكَأَنَّ الصُّورَ حنجرته، وكَأَنَّ نفخة الصورِ زَمَجْرَتُهُ؛ إذا سُمِعت خفتت^٢ العقائر^٣، ولاذت الهوامُّ بالحفائر، وطار الواقع ووقع الطائر. وصَفْتُهُ فقلت: هامة من أضخم القمم،^٤ جلست على المنكب العمم،^٥ وليست تاج الشهرة في الأمم؛ وراء الهامة غفرة^٦ كأنها اللامة،^٧ هي اللبدة وهي عمامة أسامة؛^٨ دارت على وَجْهِه كوجه الموت بادي الشُّرَّة، منقبضِ الأَسِرَّة؛ ذي جبهة مغبرة؛ كجبهة القتال مكفهرة؛ وكأنها صفحة السِّيف؛ تلقى الحتف دون الحَيْف؛ في الجبهة عيان كاللهب؛ في حجابين^٩ كالخطب؛ بينهما أنف غليظ القصبية، منتشرُ الأُزْنَبَةِ؛ كأنه الأفعوان افترش

^١ الصور: القرن الذي ينفخ فيه يوم البعث.

^٢ خفتت: سكنت.

^٣ العقائر: الأصوات.

^٤ القمم: واحدها قمة؛ وهي أعلى الرأس.

^٥ العمم: التام الهيئة.

^٦ غفرة: اللبدة.

^٧ اللامة: الدرع.

^٨ أسامة: علم جنس على الأسد.

^٩ الحجابين: عظما الحاجبين.

الحَجَر؛ أو اضطلع في هشيم الشَّجَر؛ حول الأنف كلحة،^{١٠} كأنها خزائن أسلحة؛ إذا انطبقت فعلى كوامن الغيوب، وإذا انفتحت فعن القضاء بارز النُّيُوب؛ ومن عجب الخلق رأسُّ كأنه صخرة، أو كأنه أرومة يابسة نَخرة؛ ينهض به ساعد جدل،^{١١} لا هزيل ولا عبئ؛ كما تنهض أسطوانة الحديد على قلتها بالكثير الضخم من البناء؛ وللأسد كَفُّ كأنها المدجج،^{١٢} أو كأنها الحجر المدمج: «إذا مسَّت قفار الفرس قطعت نظمه، ونَثَرَتْ لحمه وعَظْمَه»^{١٣} كل ذلك في إهاب أغبر، وجلباب أكدر، كأنما صنعا من القفر، أو قُطعا من الصَّخَر، أو كأنما كُسيًا لون الصحراء كما تكسى البوارج لَوْنَ البحر، وإذا قام على برثنه^{١٤} فتمثال، وإذا انقضَّ فهضب منهال؛ وإذا تراءى بالسَّهل فدعامة، وإذا طلع من الحَزْن فَعَمامة.

^{١٠} الكلحة: الفم وما حواليه.

^{١١} الجدل: الحسن القتل.

^{١٢} المدجج: القفد.

^{١٣} هذه الجملة عن (لاروس) الكبير.

^{١٤} البرثن: المخلب.

الأسد في حديقة الحيوانات

يا جَارَ الجِيْزَةِ وأسِيرَ الحَدِيقَةِ، سَرَتِ الهُمُومُ فلم تَنَمْ؛ أَرَقَّتَنِي شَتُونَ وشَجُونَ، وَذَكَرِيَاتُ مَا تَرَكَتِ السَّنُونُ، وَأَرَقَّكَ حَزُّ القَيْدِ، وَضَغَطُ الحَدِيدِ؛ وَأَثَارَكَ ذَكَرَى الصَّيْدِ، وَالحَنِينِ لِلبَيْدِ؛ سَبْحَانَ المَعَزِّ بِالحَرِيَةِ المَذَلِّ بِالرَّقِّ؛ مَا أَرَقَّكَ بِالأَسْحَارِ، وَكَانَ غَطِيْطُكَ أَرَقَّ الصَّحَارِ،^١ وَفَرَّقَ^٢ السَّمَارَ^٣ فِي الأَكْوَارِ، وَمَا بَالُ زَنْبِرِكَ يَنَامُ عَلِيْهِ الطَّيْرُ مَلَاءَ جَفْوَنِهِ، وَلَا يَتَحَرَّكَ لَه لَيْلُ الجِيْزَةِ مِنْ سُكُونِهِ؛ أَصْبَحَ أَقْلٌ مِنَ النَّبَاحِ؛ وَأَذَلَّ مِنَ النَّيَّاحِ، وَكَانَ بِالأَمْسِ يُزْعِدُ البَطَّاحِ، وَيُسْقِطُ مِنْ يَدِ البَطْلِ السَّلَاحِ؛ وَأَيْنَ أبا لِبْدَةَ طَلَعَةُ كَانَتْ تَعْقِلُ الفَرَسَ وَالفَارَسَ، فَأَصْبَحَتْ يَدْعُو العِيُونَ إِلَيْهَا الحَارِسَ؛ يُطِيفُ بِهَا النَّشَأُ،^٤ وَلَا تَخْفِيفُ الرِّشَاءُ. عِزَاءً مَلِكِ البَيْدِ، ابْنَ الفَاتِكِ الصَّنْدِيدِ، وَأبا الخَالَةَ^٥ الصَّيْدِ؛ وَإِنْ لَمْ تَزِدْنِي عِلْمًا بِالدُّوَلَةِ كَيْفَ تَزُولُ، وَلَا بِمَا عِنْدَ النَّاسِ لِلنَّعْمَةِ المَنْكُوبَةِ، وَالبَطُولَةِ المَقْهُورَةِ، وَالأَخْلَاقِ المَخْذُولَةِ، وَالعُرُوشِ المَثْلُولَةِ، فَفَقَبْلَكَ ضَاقَتْ «أَغْمَاتُ» عَلَي سَجِينِهَا، وَأَخْنَتْ «أَمِيرَ جُونِ»^٦ عَلَي قَطِينِهَا،^٧ وَأَضْرَتْ (القَدِيْسَةَ هَيْلَانَةَ) بِرَهِيْنِهَا،^٨ أَجْوَادُ نَزَلَ بِهِمُ الدَّهْرُ، وَأَحْرَارًا أَنَاخَ

^١ الصحار: واحدها صحراء.

^٢ الفَرَّق: الخوف.

^٣ السمار: أي المتسامرين في الرحال.

^٤ النشأ: الأحداث.

^٥ الخالة: المتخيلون من الخيلاء.

^٦ أمير جون: قصر الخديو إسماعيل في منفاه بالآستانة.

^٧ القطين: القاطن.

^٨ رهينها: يعني به نابليون.

عليهم الأسر، وأملاك^٩ جرى عليهم النهي والأمر؛ وأنت في صحارك أطول في الملك بنياناً، وأعرض في الأرض سلطاناً، وأوسع شهرة وأنبى مكاناً؛ عرشك أبا الأشبال، على السهل والجبال، وكل داب^{١٠} على الرمال، رعية لك أو مال؛ تمثال القوة، ومثال المروءة؛ نفس بهيمة، وأخلاق عظيمة؛ ألسنت أبا لبدة تحمي العرينة، وتحسن عشرة القرينة، وتبني الذُّرِّيَّةَ المتينة؛ وتعفُّ عند الشُّبَّع، وتفضل على التَّبَّع؛ وتذهب مذهب الأقمار، فتطلع بالليل وتستسرُّ بالنهار؛ ولك قبل البطش جَلَجَلَةٌ^{١١} منذرة، وبهنسة^{١٢} محدِّرة؛ وغيرك في السباع خَتَلٌ وَخَتَرٌ^{١٣} وجاء القَرَنُ^{١٤} على خمر،^{١٥} من أجل هذا ومثله في الأخلاق صَرَبَتِ الأُمُّ بك الأمثال، ونحتوا على صورتك التَّمثال، واستعاروا أسماءك للأبطال، وأشباه الأبطال، حتى قيل للإخشيدي^{١٦}: أسد القلب، وقيل للصليبي^{١٧}: قلب الأسد، شُبَّه بك كلُّ شجاع ولم تُشَبَّه من الشجعان بأحد؛ عطف بقلبي على صغارك أبا الأشبال، أنهم كصغاري ولدوا في الرق وشبوا على مسِّ هوانه، كلا النشأين مغلوبٌ على دياره، مَرزُوءٌ بالتشريك في وجاره،^{١٨} مغامرٌ في صحراء الحياة بغير أظفاره؛ ولأن لك فؤادي أبا لبدة هذا الذلُّ بعد العز، وهذا الرسف^{١٩} في الضيق بعد المَرَح في السَّعة؛ واستأواني قيد الحديد، بعد تاج البيد. وما أسفي والله على ظُفرك المقلوم، ولا على نابك المَحطُوم، فإني وجدتُ البغي ليس يدوم؛ ولَسْتُ أنكرُ عليك شدة لم ينكرها الناس على الحضارة وهم يرون ظُفَرها

^٩ الأملاك: جمع ملك.

^{١٠} داب: ساع.

^{١١} الجلجلة: الزئير.

^{١٢} البهنسة: التبختر.

^{١٣} ختل وختر: أي غدر.

^{١٤} القرن: الخصم.

^{١٥} على خمر: على غفلة.

^{١٦} الإخشيدي. هو كافور. وقوله: «أسد القلب» هو من قول المتنبي: أسد القلب آدمي الرواء

^{١٧} الصليبي: هو ريتشارد ملك إنكلترا الملقب بقلب الأسد.

^{١٨} الوجار: جحر السبع، والمراد به هنا الوطن.

^{١٩} الرسف: مشي المقيد.

يقطر من دم الجبل،^{٢٠} وَيَرُونَ نَابَهَا يَقْطُرُ من دم الريف؛^{٢١} وإنما أسفي أبا الأشبال على تلك الشخصية المتظاهرة، وتلك الروحة القاهرة؛ وعلى حضرة كأنها مجلس الحكم. ونظرة كأنها الأمرُ النافذ، وعلى صيحة تأتيك بالصيّد مشكولاً، متهيئاً من نفسه مأكولاً؛ أدوات زعامة، وآلات سيادة؛ مما يهب الله لأفراد البشر أحياناً، ويُقّي على آحاد الرجال أنّا فأنّا؛ فإذا هم القامة والسادة، وإذا الأمم تأتيهم منقادة؛ وقد زادك الله عليهم رعيةً سُلِبَتْ منها العقول، فاسترحت من الرأي وصراحتة، والفكر وشجاعته، والمبدأ وصلابته؛ وكُفِيتَ سيوفاً بينا هي لك، إذا هي عليك؛ وأقلاماً مأجورُها أسيرك، وطلّيقها أنت أسيره؛ أعلمت أبا الأشبال إلى أي الأجام نُقِلت، وفي أي الأظام اعْتِقِلت، أسمعْت عن أسدٍ نَجْم،^{٢٢} في هذا الأجم، وضرغامية غاب، عن هذا الغاب؛ أذلت الحوادث بالأمس عزينته، واحتلت الخطوب عرينه، وعطلت نكبته الدنيا من زينة، وغادرتها بعد فرح حزينه؛ وكان أكثر من آباءك أسماء، وأطول من عشيرتك في العز سماء، وأمنع وادياً وأعزّ ماء؛ منعكم القرار بالصحراء صهيله،^{٢٣} وخلف زئيركم عليها صليله؛^{٢٤} وغلّبكم على أطرافها؛ فكل ماء بها ماؤه، وكل يبس غيئه؛ وكانت هذه الحرجات^{٢٥} تحته أجمّة الأغلب الهصور، وكانت نظماً من قصور، لم تر أمثاله العصور؛ فلا «الجعفري»^{٢٦} حكاها، ولا «الزهراء»^{٢٧} أعطيت حُلاه، ولا الإيوان ساواه، في شرفه وعُلاه. وكانت هذه الجنات وشي دوره، وجلي قصوره، وكانت هذه العيون محاجر العين من حوره، ومعاصم ريمه ويعفوره؛^{٢٨} وكانت الساحة، سماء الندى وأرض الساحة؛ جنات وقصور، ونعيم وحُبور، وعين حور، يطأن المسك والكافور؛ مرمز راع مسنونة بلقيس^{٢٩} الزمان، فكشفت عن ساقيتها بين يدي سليمان.

^{٢٠} الجبل: هو جبل الدروز.

^{٢١} الريف: هو وطن عبد الكريم وقومه.

^{٢٢} نجم: ظهر. والمراد بالأسد هنا: الخديو إسماعيل.

^{٢٣} صهيله: أي صهيل خيله.

^{٢٤} صليله: أي صليل سيوفه.

^{٢٥} الحرجات: الخماثل.

^{٢٦} الجعفري: قصر المتوكل.

^{٢٧} الزهراء: قصر الخليفة الأموي بالأندلس.

^{٢٨} اليعفور: الطيبي.

^{٢٩} يشير ببلقيس: إلى الإمبراطورة «أوجيني» نزيلة هذه القصور بالأمس.

الجمال

جمعت الطبيعة عبقريتها فكانت الجمال، وكان أحسنه وأشرفه ما حلّ في الهيكل الآدمي، وجاور العقل الشريف والنفس اللطيفة والحياة الشاعرة؛ فالجمال البشري سيد الجمال كله.. لا المثال البارغ استطاع أن يخلعه على الدمي الحسان، ولا للنيرات الزهر في ليالي الصحراء ما له من لمحّة وبهاء، ولا لبديع الزهر وغريبه في شباب الربيع ما له من بشاشة وطيب. وليس الجمال بلمحة العيون، لا بهريق الثغور، ولا هيّف القدود، ولا أسالة الخدود، ولا لؤلؤ الثنايا وراء عقيق الشفاه، ولكن شعاع علوي يبسطه الجميل على بعض الهياكل البشرية، يكسوها روعة ويجعلها سحرًا وفتنة للناس.

الأمومة

الأمومة هي رسالة المرأة على هذه الأرض، وشأنها الأول في الحياة، وهي حجر الأساس في الأسرة، وقواعد المجتمع وأركانه منذ قام إلى يوم ينفذ. وفي الأمومة اجتمعت خلال البرّ ونوائبُ الحق وتبعات الواجب، وصورُ البطولة وفضائل الإيثار، ومواطن الصبر الجميل. وكأنَّ الأمومة في البيت الملكة في الخلية أو العذراء في البيعة؛ فيا أيتها الفتاة المدلّة بصباها، المزهوّة بحسنها، المترقبة من ورائهما لذة الحب وفيض السعادة: اذكُري أن الجمال حُرّ طليق إلا من قيدين كلاهما أجمل منه: الشرفُ؛ والعَفافُ؛ إذا انسلَّ منهما عَثْرٌ في خطاه الأولى، وذوى في إبان النضرة. وسلي ذواتِ الشَّعر الأبيض ممن حوِّك من غواني أمس: هل دولة الحسن إلا كدولة الزَّهر، وهل عُمر الصِّبا إلا أصيل أو سَحَر، وهل غيرَ الأمومة تاجٌ للمرأة تلبسه من مختلف الشعر ألوانًا.

جمالُ الأمومة لمحّة من جمال الحياة، وشعاعٌ من عبقريّتها، وهو أحفلُ أيامًا، وأطولُ مقامًا، وأصدقُ أعلامًا.

حُبُّ الأمومة أشهُرُ وسنون، وبناتٌ وبنون، وأشغالٌ وشئون، ويبقى مع التُّكل، ويتقد عند حَشْرَجَةِ الصِّدر، ولا يَنْطَفِئُ إلا بانطفاء القلب.

لذة الأمومة معنى قُدسيّ، وسرٌّ خفيّ، وحال كمناعم الخلد ولذاتهن ليس منا إلا من قرأه في تلك العيون التي رَعَتْنَا في المهود صغارًا، وسهرت علينا في فراش المرض كبارًا.

الكاتبُ العموميُّ

تمثالٌ من الجهل العام صنعتهُ القرونُ والأجيالُ، حفَّاره عبثُ الحاكم، وطينته غفلة المحكوم، وهو الأُمِّيَّة على قارعة الطريق، لا يجمعه والحضارة مكان.

الحياة وهم ولعب

الحياة توهم، عشنا بالوهم الزمن الرغد، وعشنا بالوهم الزمن النكد؛ طاف بنا الوهم على السعادة أحياناً، ومرر بنا على الشقاء أننا فأننا؛ وبالوهم عاديننا، وبالوهم واليننا، وبالوهم مرضنا، وبالوهم تداويننا؛ حتى إذا جاءت سكرة الموت كان ذلك أول العهد بالحقيقة؛ والحياة لعب، قضينا الطفولة باللعب، وقطعنا الشباب ملاهي وملاعب، ولعبنا في ظل المشيب؛ حتى إذا جاءت سكرة الموت؛ كان ذلك أول العهد بالجد.

العَلَمُ

شعارُ الأمم وفخارهم، اتخذ الناسُ في شَبَابِ الدولِ الأعلامِ ولا يزالون في ظل هذه الحضارة الكبرى يبلغونَ في محبة العَلَمِ وإجلاله إلى التقديس، فهو — حيث يخطرُ وحيث يخفق — شبحُ الوطن المنظور، وماضيه المنشور، وتاجُ الرءوسِ كُلِّها، وقِبْلَةُ الوجوه جميعاً؛ إذا نُشِرَ في السُّلْمِ خلع على أيامها الجمال، وكسا مواكبها المهابةَ والجَلالَ؛ وإذا رُفِعَ في الحربِ كانَ نَظْمَ الصفوفِ وألْفَةَ القلوبِ ومَثَارَ الحماسِ وداعياً لتضحية، وسحبِ النسيانِ على الأحقاد، وحسم ما اشتتهته الأعادِ. مندبلاً طالما رُفِعَ على أيدِ الآباءِ فكفكفوا به دمع الحزن، وتلقَّوا فيه دمع الفرح، ضحكوا وراءه كثيراً في نصيبين، وقعدوا حوله في عرس، وبكوا حوله كثيراً في التلُّ الكبيرِ وقاموا وراءه في مَآتم.

فيا أيُّها العَلَمُ الأخضرُ؛ كديباجة السُّلْمِ أو كظلال الخِصبِ، المستعيرِ الهلالِ غزّةً، المفصَّلُ بنجوم السعد، الموسوم بالحضارةِ من عهد خوفو ومينا، المُحَلَّى بالفتحِ من زَمَنِ ابنِ العاصِ، النابه الأيامِ والوقائعِ بين يدي إبراهيم، لا زلتَ تُرْفَعُ لِمَجْدٍ، ولا زالت الأجيالُ تتلقَّاكَ يميناً، ولا نُشِرتَ إلا في حق؛ ولا طُوِيَتَ إلى على حق.

ويا ابنِ مصرَ على قَدَمٍ؛ حيِّ العَلَمُ!

السَّجْعُ

السَّجْعُ شِعْرُ الْعَرَبِيَّةِ الثَّانِي، وَقَوَافٍ مَرْنَةٍ رِيْضَةٍ خُصَّتْ بِهَا الْفَصْحَى، يَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ الْمَطْبُوعُ، وَيُرْسِلُ فِيهَا الْكَاتِبُ الْمُتَفَنِّنُ خِيَالَهُ، وَيَسْلُو بِهَا أحياناً عَمَّا فَاتَهُ مِنَ الْقَدْرِ، الْقُدْرَةَ عَلَى صِيَاغَةِ الشَّعْرِ، وَكُلَّ مَوْضِعٍ لِلشُّعْرِ الرَّصِينِ مَحَلٌّ لِلسَّجْعِ؛ وَكُلُّ قَرَارٍ لِمُوسِيقَاهُ قَرَارٌ كَذَلِكَ لِلسَّجْعِ؛ فَإِنَّمَا يَوْضَعُ السَّجْعُ النَّابِغَ فِيَمَا يَصِلِحُ مَوَاضِعَ لِلشَّعْرِ الرَّصِينِ، مِنْ حِكْمَةٍ تَخْتَرَعُ، أَوْ مَثَلٍ يُضْرَبُ، أَوْ وَصْفٍ يَسَاقُ؛ وَرَبِمَا وَشِيَتْ بِهِ الطَّوَالُ مِنْ رَسَائِلِ الْأَدَبِ الْخَالِصِ، وَرُضِّعَتْ بِهِ الْقِصَارُ مِنْ فِقْرِ الْبَيَانِ الْمُحْضِ؛ وَقَدْ ظَلَمَ الْعَرَبِيَّةَ رِجَالٌ قَبَّحُوا السَّجْعَ وَعَدُّوه عَيْباً فِيهَا، وَخَلَطُوا الْجَمِيلَ الْمُتَفَرِّدَ بِالْقَبِيحِ الْمُرْدُولِ مِنْهُ: يَوْضَعُ عِنَوَاناً لِكِتَابٍ، أَوْ دَلَالَةً عَلَى بَابٍ، أَوْ حِشْوَاً فِي رَسَائِلِ السِّيَاسَةِ، أَوْ ثَرْتَةً فِي الْمَقَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ؛ فَيَا نَشْءَ الْعَرَبِيَّةِ؛ إِنْ لَغْتَكُمُ لَسْرِيَّةً مَثْرِيَّةً؛ وَلَنْ يَضِيرَهَا عَائِبٌ يَنْكُرُ حَلَاوَةَ الْفَوَاصِلِ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، وَلَا سَجْعَ الْحَمَامِ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، وَلَا كُلَّ مَأْثُورِ خَالِدٍ مِنْ كَلَامِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

النقد

فَنُ قَدِيمٌ كَرِيمٌ وَتَالِدٌ مِنْ رَأْسِ مَالِ الْحَضَارَةِ فِي عُلُومِ الْأَدَبِ وَفَنُونِهِ، تَوَارَثَهُ الْأَوَاخِرُ عَنِ الْأَوَائِلِ، فَأَخَذَتْهُ حَضَارَتُهُمْ فَحَسَّنَتْهُ عَلَى عَادَتِهَا، وَضَخَّمَتْ كِتَابَهُ، وَوَسَّعَتْ أَبْوَابَهُ، وَهَذَّبَتْ أَصُولَهُ، وَوَضَعَتْ قِيُودَهُ، حَتَّى صَارَ مِنْ دَعَائِمِ الصَّحَافَةِ؛ وَأَضْحَى ظِلَّ التَّأْلِيفِ وَمَعْرِضَ الْعَبَقْرِيَّاتِ وَمِرَاةَ آثَارِهَا فِي مَسَائِلِ الْأَدَبِ وَشَتَى مَطَالِبِهِ؛ وَالنَّقْدُ حَارِسُ الْأَدَبِ وَمَكْمَلُ الْكِتَابِ وَالْكَتَبِ، وَهُوَ آلَةُ إِنْشَاءٍ، وَعُدَّةُ بِنَاءٍ. وَلَيْسَ كَمَا يَزْعَمُهُ الزَّاعِمُونَ مِعْوَلٌ هَدْمٌ، وَلَا أَدَاةٌ تَحْطِيمٍ.

وَالنَّاقِدُ مُسْتَهْدَفٌ يَعْزُضُ عَقْلَهُ وَبِضَاعَتِهِ وَخُلِقَهُ وَحَكَمَهُ عَلَى النَّاسِ، وَرَبِمَا ارْتَدَّ مِعْوَلُهُ إِلَيْهِ مَا يَرْتَدُّ سِلَاحَ الْبَغْيِ إِلَى صَاحِبِهِ فَهَدَمَهُ عَلَى الْمَكَانِ، وَالنَّاسُ يَرُونَ وَهُوَ لَا يَرَى مِنْ سَكْرَةِ الْغُرُورِ، وَمَنْ نَقَدَ عَلَى غَضَبٍ أَسْحَطَ الْحَقَّ، وَمَنْ نَقَدَ عَلَى حِقْدٍ احْتَرَقَ، وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ حَرَقَ، وَمَنْ نَقَدَ عَلَى حَسَدٍ لَمْ يَخْفَ بَغْيُهُ عَلَى أَحَدٍ، وَمَنْ نَقَدَ عَلَى حُبِّ حَابِيٍّ وَجَمَحَ بِهِ التَّشْيِيعَ.

الزَّهْرَةُ

صُورَةُ الرَّقَّةِ وَرَمَزُ الْعَاطِفَةِ، وَهَيْكَلُ الْخَيْرِ وَالْحُبِّ وَالْجَمَالِ. قَدِيمًا أُوْلِحَ بِهَا النَّاسُ وَقَدِيمًا ظَلَمُوهَا؛ أَمَا هِيَ فَطَالَمَا مَلَأَتْ حِدَائِقَهُمْ بِهَاءٍ وَحَسَنًا، وَحُجْرَاتِهِمْ زِينَةً وَطِيبًا؛ وَجَمَلَتْ عُرْيَ ثِيَابِهِمْ وَحَسَّنَتْ أَعْرَاسَهُمْ وَوَلَّاتَهُمْ؛ فَكَانَتْ مَنْصَّةً لِلْعُرُوسِ وَإِكْلِيلًا، وَشَارَةً لِلْمَائِدَةِ وَمَنْدِيلًا، وَسَفَرَتْ بَيْنَ الْعَشَّاقِ فَحَسُنَتْ رِسَالَةٌ وَرَسُولًا.

وَأَمَّا هُمْ، فَمَا أَشَدَّ مَا جَنَوْا عَلَيْهَا! فَطَمَّوْهَا عَنْ عَصَاةِ الْعُودِ، وَفَجَعَوْهَا فِي وَثِيرِ الْمُهُودِ، وَأَبْدَلُوهَا مِنْ طُولِ الْفَضَاءِ وَعَرَّضُوهَ بِالْبِوَاطِي الضِّيْقَةِ، وَمِنْ سَمَاءِ الرُّوْضِ وَأَرْضِهِ بِالْجِدْرَانِ الْمَزْهَقَةِ، وَمِنْ مَاءِ الْعَيُونِ بِمَاءِ الْجِرَارِ، وَمِنْ شِعَاعِ الْفَضَاءِ الطَّلَّقِ بِشِعَاعِ النَّافِذَةِ وَالْكَوَّةِ.. ظَلَمَ عِبْقَرِيٌّ، وَإِحْسَانٌ، جُزِيَ بَغَيْرِ إِحْسَانٍ.

السَّاقِيَّةُ

أَصْوَاتُ السَّوَاقي فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ، وَعَلَى فِضَاءِ الرَّيْفِ، أَمْ تَنْغِيْمُ الْمَلَائِكَةِ فِي الْأَرَاغِيلِ؟ أَمْ
خُورِ النَّوْرِ حَرَجٌ مِنَ الْأَرْضِ وَقَدْ أَخَذَهُ الضَّجْرُ، وَنَاءَ قَرْنَاهُ بِذُنُوبِ الْبَشَرِ؟
نَعَمْ كَالنَّفْخِ فِي الْغَابِ، طَبِيعَةٌ قَادِرَةٌ سَاحِرَةٌ لَهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ مُوسِيقَى حَتَّى فِي اللَّيْفِ
وَالخَشْبِ، فَيَا قَيْنَةَ الْأَجْيَالِ، مَا هَذِهِ الدُّمُوعُ الْفَوَاجِرُ، الَّتِي لَمْ تُعْرِفْ مِنْ شَتُونَ وَلَمْ
تُرْسَلْهَا مَحَاجِرُ؟ وَمَا هَذِهِ الضُّلُوعُ الْهَاتِفَةُ بِالشُّكُوى، الصَّارِخَةُ مِنَ الْبَلْوى، وَمَا عَرَفَتْ
الهُوى، وَلَا بَاتَتْ لَيْلَةً عَلَى الْجَوَى؟ حَدِّثِينَا عَنِ الْقُرُونِ الْأُولَى، قُرُونِ خُوفِ وَمِينَا.

الشَّيْخُ الْمَهْنَدِمُ

أيها الشيخ المَهْنَدِمُ المَقْدَدُ: ما عَرَّكَ بالسَّنِّ حتى لبست للصبِّ ثيابه، ونازعتَ حفيدَكَ شَبَابَه. إنما مَثَلُكَ في هذا البريق المزوَّر وهذه النضارة المُصْطَنَعَة، كَمَثَلِ الصَّرْسِ المَحْشُوِّ المَكْسُوِّ، نُزِعَ مِنْهُ العَصَبُ، وَخُلِعَ عَلَيْهِ الذَّهَبُ.

خَوَاطِر

- مَنْ بَغَى بِسِلَاحِ الْحَقِّ بُغْيَ عَلَيْهِ بِسِلَاحِ الْبَاطِلِ.
- قُبِحَ الدَّيْنُ نَطَقَ فَفَضَحَ، وَسَكَتَ فَفَدَحَ.
- يَسْتَرِيحُ النَّائِمُ مِنْ قِيُودِ الْحَيَاةِ كَمَا يَتَرَوَّحُ السَّجِينُ سَاعَةً فِي فِنَاءِ السَّجْنِ.
- مَا نَبَّهَ عَلَى الْفُضْلِ الْكَاذِبِ، مِثْلُ الثَّنَاءِ الْكَاذِبِ.
- نَحْوَةُ الْكَلْبِ مِنَ الرَّاعِي، وَمَنْعَةُ الدِّيكِ مِنَ السُّطْحِ.
- إِذَا بَالِغُ النَّاسِ اسْتَعَارُوا لِلِهَرِّ شَوَارِبَ النَّمْرِ.
- قَضَاءُ السَّمَاءِ بِقَضَاءِ الْأَرْضِ اخْتَلَطَ، وَهَذَا مَعْصُومٌ، وَهَذَا عَرْضَةُ لِلْغَلَطِ.
- الْفَضَائِلُ حَلَائِلٌ، وَالرَّذَائِلُ خَلَائِلٌ.
- هَلَكَتْ أُمَّةٌ تَحْيَا بِفَرْدٍ، وَتَمُوتُ بِفَرْدٍ.
- فِي الْغَمْرِ تَسْتَوِي الْأَعْمَاقُ.
- فِرَاشُ الْمُتَعَبِ وَطِيءٌ، وَطَعَامُ الْجَائِعِ هَنِيءٌ.
- تَغْطِي الشَّهْرَةَ عَلَى الْعِيُوبِ؛ كَالشَّمْسِ غَطَّى نُورُهَا عَلَى نَارِهَا.
- لِلرِّيَاسَاتِ أذْنَابٌ، فَلَا يَكُنْ دَبَّكُ كَذَنْبِ الطَّاوُوسِ.. فَيَذْهَبُ بِبِهَائِكَ كُلَّهُ لِنَفْسِهِ، وَلَا كَذَنْبِ الْفَأْرِ فَيَنْقَطِعُ عَنْكَ عِنْدَ الْعَسَلِ، وَلَا كَذَنْبِ النَّجْمِ فَيَصْبِغُكَ بِنَحْسِهِ.
- مَنْ عَجَزَ عَفًّا، وَمَنْ يئَسَ كَفًّا، وَمَنْ جَاعَ أَسْفًّا.
- الْأُمُّ بِنْيَانُ الْهَمِّ.
- الصَّالِحُونَ يَبْنُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَالْمُصْلِحُونَ يَبْنُونَ الْجَمَاعَاتِ.
- الْمَدْرَسَةُ تُعَلِّمُ وَلَا تَحَلِّمُ، وَالْحَيَاةُ تَحَلِّمُ وَتُعَلِّمُ.
- الْمُتَحَيِّزُ، لَا يُمَيِّزُ.

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

- عاش العالم فمات، ونَفَقَ الجاهل كالسَّائمات.
- الخاصة أذوقَ لحكمة البيان، والعامّة أذوقَ لحكمة الألعان.
- المال عُرْضةٌ للآفات، فلا تتعجّلوها بالسَّرَفِ.
- وُلِدَ البخيل مرحوم، وولد المبذر محروم.
- الثَّقِيلُ جَبَلٌ إِذَا تَلَطَّفَ سَقَطَ.
- يَدُ الْقَاتِلِ حِمْرَاءُ، تَنْمُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَتَشْهَدُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ.
- أَسِ ثُمَّ انْصَحْ.
- رَبِّمَا تَقْتَضِيكَ الشَّجَاعَةُ، أَنْ تَجْبُنَ سَاعَةً.
- الْخَيْرُ فِيهِ ثَوَابُهُ وَإِنْ أَبْطَأَ، وَالشَّرُّ فِيهِ عِقَابُهُ، وَقَلَمَا أَخْطَأَ.
- الْخَيْرُ تَنْفَحُكَ جَوَازِيهِ، وَالشَّرُّ تَلْفَحُكَ نَوَازِيهِ.
- عَلَيْكَ أَنْ تَلْبَسَ النَّاسَ عَلَى أَخْلَاقِهَا، وَلَيْسَ عَلَيْكَ تَرْقِيْعُ أَخْلَاقِهَا.
- الْعِتَابُ رِفَاءُ الْوَدِّ.
- لَا سُلْطَانَ عَلَى الذُّوقِ فِيمَا يُحِبُّ وَيَكْرَهُ.
- ذَنْبُ الطَّائِفِ رَفَعَهُ لِرَأْسِهِ، وَذَنْبُ النُّجْمِ جَرَّ لَهُ نَحْسًا.
- الْغَنِيُّ مَعَ الْفَقِيرِ فِي كَيْدٍ، إِذَا مَنَعَهُ حَسَدٌ، وَإِذَا أَعْطَاهُ حَقْدٌ.
- النَّصِيحُ ثَقِيلٌ فَلَا تَجْعَلْهُ جَدَلًا. وَلَا تَرْسَلْهُ جَبَلًا.
- الرُّوحُ اللَّطِيفَةُ تَسْتَشْفُفُ، وَالنَّفْسُ الشَّرِيفَةُ تَسْتَشْرَفُ، وَالضَّمِيرُ النَّقِيُّ مَرَأَةٌ، لَوْ التَّمَسَّ فِيهَا الْمَرْءُ وَجَهَ الْغَيْبَ لَرَأَاهُ.
- رَبِّ قَارِضٍ لِلْأَعْرَاضِ، وَعَرِضُهُ بَيْنَ شَقِيٍّ الْمَقْرَاضِ.
- الْحِكْمَةُ قِوَامُ الْخَيْرِ الْخَاصِّ، وَدِعَامَةُ الْخَيْرِ الْعَامِ.
- الْبَصَائِرُ كَالْأَبْصَارِ: إِذَا تَوَجَّهَتْ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ لَمْ تَتَحَوَّلْ عَنْهُ، رَجَعَتْ حَوْقَى.
- أَكْثَرُ الْفَضَائِلِ اصْطِلَاحٌ، وَجَوْهَرُهَا كُلُّهَا الصَّلَاحُ.
- الدَّلِيلُ بَغِيرِ قَيْدٍ مَتَّقِيْدٍ، كَالْكَلْبِ لَوْ لَمْ يُسَدَّ بَحْثٌ عَنْ سَيِّدٍ.
- تَحَسَّنْ الْمَرْأَةُ نِصْفَ عِلْمِيَّةٍ، وَيَقْبُحُ الرَّجُلُ نِصْفَ جَاهِلٍ.
- مَنْ أَثْرَى أَوْ سَادَ، فَلَا يُعَدُّنَّ الْحُسَادَ.
- إِذَا خَدَعَ الطَّبِيبُ الْمَرِيضَ أَعَانَ الدَّوَاءَ، وَإِذَا خَدَعَ الْمَرِيضَ الطَّبِيبَ أَعَانَ الدَّاءَ.
- الْعَامَّةُ أَذْنَابٌ مِنْ يَمْسَحُ رِءُوسَهُمْ.
- يَهْدِمُ الصَّدْرُ الضَّيْقَ، مَا يَبْنِي الْعَقْلُ الْوَاسِعَ.

- العاقل من ذكر الموت ولم ينس الحياة.
- يستأذن الموت على العاقل، ويدفع الباب على الغافل.
- قد يداويك من المرض اتقاؤه، ولا ينجيك من الموت إلا لقاؤه.
- الغلط إذا أدرك تبيد، وإذا ترك تعدد.
- المسيح بكر الحكمة.
- على كتب السماء، تهجى الحكمة الحكماء.
- كل غائب يُسلى، إلا غائب الثكلى.
- قلما طار اسم الشاعر في حياته، فوقع بعد مماته.
- إذا كثر الشعراء، قل الشعر.
- أكثر الشعراء هتافاً بشعره، أقلهم راوية.
- الحقيقة ثقيلة، فاستعبروا لحقائق العلم خفة البيان.
- ما راع البيض الرعابيب، مثل رواعي المشيب.
- تحمل المليحة ثكل الجمال، كما يحمل البخيل ثكل المال.
- الشباب أعراس الجمال، والمشيب مآتمه.
- عند الكمال، يبتدئ الجمال.
- للجمال حين يزول، جلالة الملك المعزول.
- العلماء أشباه، إلا من زاد في العلم حرفاً.
- السقي بعد العرس، والتربية قبل الدرس.
- اجتنب التفريط والإفراط، تستغن عن بقراط.
- بغض الكبر إلى النفس الكبيرة، وحُبب الصغائر إلى النفس الصغيرة.
- يا أبا العزلة، أنت لو طرت عن الناس ما وقعت إلا عليهم.
- من استقام استدام.
- الكسل فالج النفس.
- الوقت مُصارع لا يزال بك حتى يصيرك أجلاً رثه، ولا يدعك إلا وأنت جثة.
- في شهوة النفس، شقوة الجسد.
- العادة شهوة لازمة قاهرة.
- تهرم القلوب كما تهرم الأبدان، إلا قلوب الشعراء والشجعان.
- الشعر فكر وأسلوب، وخيال لعوب، وروح موهوب.

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

- مَنْ ذَهَبَ يَسْتَقْصِي سِرَائِرَ النُّفُوسِ لَمْ يَرْجِعْ.
- رُبَّ اسْتِحْيَاءٍ، تَحْتَهُ رِيَاءٌ.
- مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بَعْدَ جَهْلِ وَجَدَهَا؛ وَمَنْ جَهَلَ نَفْسَهُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ فَقَدَهَا.
- مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُرْضِي أَبَدًا، يَوْشِكُ أَنْ لَا يُرْضِيَ أَحَدًا.
- مَنْ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ فَقَدَهَا، وَمَنْ ذَهَبَ بَوْلَدِهِ ضَيَّعَهُ.
- السُّجُونُ إِذَا امْتَلَأَتْ، انْفَجَرَتْ.
- لِلنَّفْسِ عَلَى كُلِّ مَا عَمِلَتْ عِلْلٌ مِنْ هَوَاهَا.
- رَبَّمَا مَنَعَكَ الْحَقُوقُ الْكَلَامَ، وَأَلْجَمَتِ الْعَهْودُ فَاكَ بِلِجَامٍ.
- الْبَلْشَفِيَّةُ قَيْصَرِيَّةٌ.. لَهَا جَبْرُوتُ الْمَلِكِ وَسَرْفُهُ، وَلَيْسَ لَهَا جَلَالُهُ وَلَا شَرْفُهُ.
- الْوَقْتُ عَدُوٌّ مُجْتَهِدٌ، لَا يَدِافِعُهُ إِلَّا مُجْتَهِدٌ.
- الْوَلَدُ ثَقُلُ إِذَا فَسَدَ، تُكَلُّ إِذَا فُقِدَ.
- لَوْ لَمْ يَرْقُصِ الدِّينَارُ فِي النَّارِ، مَا رَقِصَ عَلَى الْأَطْفَارِ.
- قَيْدُ الْحَدِيدِ عَسِرٌ، وَقَيْدُ الْحَرِيرِ لَا يَنْكَسِرُ، لَعَنَ اللَّهُ الْقَيْدَ كُلَّهُ.
- لَا يَقَعُ الْمَلِقُ إِلَّا فِي نَفْسِ غَزِيرٍ أَوْ مَغْرُورٍ.
- قَادَةُ الثَّوْرَةِ مَقُودُونَ بِهَا، كَالْجَلَامِيدِ تَقَدَّمَتِ السَّيْلُ تَحْسِبُهَا تَقُودُهُ، وَهِيَ بِهِ مَنذُفَعَةٌ.
- الثَّوْرَةُ جَنْوُنٌ، طَرَفَاهُ عَقْلٌ.
- مَنْ اسْتَقَلَّ بِنَفْسِهِ اسْتَوْحَشَ، وَمَنْ اسْتَقَلَّ بِرَأْيِهِ ضَلَّ.
- خَطَةُ الْعَاقِلِ فِي رَأْسِهِ، وَخَطَةُ الْجَاهِلِ فِي نَفْسِهِ.
- عَادَةُ السُّوءِ شَهْدُ آخِرِهِ عُلُقْمٌ، وَوَرْدٌ فِي أَصُولِهِ أَرْقَمٌ.
- الْحِظُّ طَيْرٌ يَقَعُ غَيْرَ مُسْتَأْذِنٍ، وَيَطِيرُ غَيْرَ مُؤَذَّنٍ.
- مَنْ أَحَبَّ الْمَالَ تَعَبَ بِجَمْعِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ الْمَالَ تَعَبَ بِتَبْدِيدِهِ.
- أَبِي اللَّهِ أَنْ يَتَسَاوَى عِبَادُهُ إِلَّا فِي النَّوْمِ وَالْمَوْتِ.
- الْأُمِّيَّةُ شَلَلُ الْأُمَّمِ؛ النَّاسُ مَعَهَا مُقْعَدُونَ، وَإِنْ خِيَلُ إِلَيْكَ أَنَّهُمْ يَعْدُونَ.
- الرَّأْيُ الْمُسَيَّرُ، إِنْ قَعَدَتْ عَنْهُ تَغَيَّرَ.
- الْعَامَّةُ تَدَعُ صَاحِبَهَا عِنْدَ بَابِ التَّارِيخِ.
- الْحَقُّ مَلِكٌ وَإِنْ مَلِكٌ، عَزِيزٌ وَإِنْ أُهَيْنَ، دَيَّانٌ وَإِنْ دِينَ.
- صَبْرُ الْحَازِمِ تَجَلُّدٌ، وَصَبْرُ الْعَاجِرِ تَبَلُّدٌ.

خَوَاطِر

- القَدَمُ إلى جاري المقدور، أسرعُ من الماءِ إلى الحدور.
- الماضي يُسَلُّ عليك يوماً.
- اخْدَعُ من شئتُ إلا التاريخ.
- ما مات الحقُّ في قوم، وفيهم رجلٌ حيٌّ.
- أصدقاءُ السياسة، أعداءُ عندِ الرياسة.
- حَيْلُ العقولِ تجري في وجوه المنفعة، وحَيْلُ النفوسِ في وجوه المضرّة.
- التاجر في حانوته بينَ يدي الرازق، فلا يُنازع ولا ينازق.
- من لم يتحرّك جمداً، ومن جمداً همد.
- محاسنُ وجه الدار.. الخميّة، ومحاسنُ وجه البلد.. الفنون الجميلة.
- خلقت المرأةُ تتبل بالجمال، فإن فاتها التمسّت ما ينبل به الرجال.
- عجبْتُ من الصدرِ يسعُ الحادثِ الجليل، ويضيقُ بحديثِ الثَّقيل.
- الحكمةُ مصباحٌ يهديك حتى في وَضَحِ الصباح.
- حُبَّبْتُ إلى الشيوخِ أحاديثُ الشباب: حنين الرجلِ في علته، إلى أيامِ صحته.
- خدع العقلُ الأمم، ويخدع الهوى العقل.
- رَبُّ حُسْنِ سَمْتٍ، أتى الرجال من الصَّمْت.
- حُبُّ القلوبِ يزول، ويبقى حبُّ العقول.
- مجد السياسة عرضة للأحداث، وقد ينهدم على أهله في الأجداث.
- إذا طال البنيانُ عن أسّهِ، انهدم من نفسه.
- سلطانُ الفضيلة أَعزُّ من سلطانِ العشق، سل عُذرة^١ عن العفاف كيف قتلها، وسل الأديرة عن دخلها؟
- مَنْ فَقَدَ الضَّمير، لم يجد مسَّ التحقيق.
- ارحمُ نفسك من الحقد؛ فإنه عَطَبٌ، نارٌ وأنت الحَطَب.
- كل نار طاهرة مطهّرة، إلا نار الحقد.
- كاد صفحُ الوالد، يسبقُ ذنْبَ الولد.
- لو حطّمت السنُّ المرأة، ما حطّمت مرآتها.

^١ بنو عذرة: قبيلة اشتهر بها الهوى العذري.

أَسْوَاقُ الذَّهَبِ

- إنما المرءُ مروءته.
- لا رعد مع صحو، ولا كوعيد العاجز لغو.
- القُمَّلُ في لبدة الأسد وهو مُطلق: أعز من الأسد وهو وراء الحديد.
- الحق المسلح أَسَدُ عرينه، والحقُّ الأَعزَلُ أسد زينة.
- لا يُبحث عن القتلِ والقتالِ دائر.
- الحق كبير فلا تُصَغِّروه بالصغائر.
- من حمل نوائبِ الحقِ حمل الأمانة كلها.
- العالم في كل زمان بلد، المال فيه أمير آخر الأبد.
- الأعمى من يرى بغير عينه، والأصم من يسمع بغير أُذنه.
- التواضع المتكَلِّفُ زهرٌ مصطنع، لا في العيون نَصْر، ولا في الأنوف عَطِر.
- كُلُّ بنيانٍ يُهدَم من رأسه. وبنيانُ الأوهام يُهدَم من أُسِّه.
- يُؤذي العاقلُ المفتون، كما يُؤذي المجنون.
- الحكمة أن تُحسن قولاً وفعلًا.
- زواج العشق ورد ساعة، وزواج المال ورد صناعة؛ والبركة في زواج موفَّق يكون لعمارة البلد، وفي سبيل الولد.
- ثلاثة مُسَخَّرُونَ لثلاثة آخر الأبد: الفقير للغني، والضعيف للقوي، والبليد للذكي.
- قلما رفعت رَجُلًا نفسه فوضع، وقلما وضعت رَجُلًا نفسه فرُفع.
- من ساء خُلُقُه اجتمع عليه نكدُ الدنيا.
- ضيقُ الرِّزق من ضيق الخُلُق.
- نَسَجَ القلوب من شهوات.
- دودُ الحرير أُحرق، هلك تاركًا للناس خير ما لبسوا، فما تركوا له منه كفنًا؛ والنحل حكيم؛ طعم من كل الثمرات ثم أُطعم.
- الشباب مُلاوة، كلها حلاوة.
- لا أعلم لك منصفًا إلا عملك؛ إذا أحسنته جمَّك، وإذا أتقنته كملك.
- إذا رأيت ساعيًا مجتهدًا تطله الأسباب، وتطاوله الغايات، فاعلم أنَّ حظَّه قاعد.
- القويُّ من قَوي على نفسه.
- العقولُ الكبار: دُررٌ كبار، لا تخلو واحدة من خَدش؛ يظهره الخلق أو يُخفيه.
- جلائل الرغائب مخبوءة في كبار الهمم.

خَوَاطِر

- يتقي الناس بعضهم بعضًا في الصغائر، ولا يتقون الله في الكبائر.
- من علم من نفسه الكرم، ربأ بها عن مواقف اللؤم.
- كفى بزوال الألم لذة، وكفى بقطاع اللذة ألمًا.
- مَنْ لم يكن في عنان لذة، أو تحت مهماز ألم، فليس على مَيِّدان الحياة.
- من عاش وعاشر، أَمَلَّ محبًّا أو ملَّ محبوبًا.
- الجماعات مطايا أهل المطامع، تبلغهم إلى منازل الشهرة.
- في الثورة لا يُقْبَلُ الرأي من أهل المشورة، على أصالة رأيهم وصدق نصيحتهم، ولكن على أسمائهم في الألسنة، وموقعهم في القلوب.
- الناس في الألم والموت سواء، لم تسلم من الدمع جفون، ولم يتمنع على الصديد مدفون.
- الفتيات نائمات فإذا تزوّجن انتبهن، والفتيان سُكَّارَى فإذا تزوّجوا صَحَوُا.
- شَبَّحَ الفقير غَادٍ رَائِحٍ على اثنين: زوج المضيعة، وامرأة المقامر.
- باني نفسه لا يبالي ما هدم.
- رَبُّ بَاكِ كضاحك المُرْن؛ دمعٌ ولا حُزْن.
- من قَعَدَ به المال لم يَقُمْ به شيء.
- ثورة النفوس تقطع الحبال، وثورة العقول تقلع الجبال.
- المقْعَدُ خَيْرٌ من القاعد، والكسيح خيرٌ من الكسلان.
- إذا صَدَقَتِ النية؛ فكلُّ مذهبٍ جميل، وكل رأي أصيل.
- عَجَزَ المغتابُ أن يكون سَبُعًا، فرضي لنفسه أن يكون ضَبُعًا.
- رَأَى الجماعات بعضه من بعض، وكلُّه من الفرد كموج البحر؛ بعضه من بعض، وكله من الريح.
- من رَفَعَ شِرَاعَ العلم، بلغ ساحلَ الحياة وهو في أول اللجة.
- الجميلُ إلى الجميل يميل، والحكمةُ تُحبُّ الفن الجميل.
- مَثَلُ الشاعر لم يرزق الحكمة؛ كالمغني: صناعةٌ ولا صوت.
- العاقلُ يكلِّمُ أناسًا ببعض عقله، وأناسًا بعقله كلُّه.
- ذكروا للْبُحْلِ مائةَ عِلَّة، لا أعرفُ منها غير الجبلة.
- الاعترافُ أَوْجَهُ الشُّفَعَاء.

- اعترافُ الخاطئاتِ استيسال، وفرارٌ من الاسترسال، فانتشلوهن بعفوكم من الهوة، وأحيطوا ضعفهنَّ من حلمكم بقوة.
- الحكمة في أفواه العلماء، وعلى شفاه الدهماء؛ كالدُّرِّ يكون في قاع البحور، ويكون في نواعم النحور، وكشعاع الشمسِ يقعُ على الوحل كما يقعُ على الزهر.
- الموتُ أولُ المخاوفِ وآخرها.
- مَنْ نَقَّضَ مَوْثِقَهُ، نَفَّضَ عَنْهُ الثِّقَةَ.
- إذا ذهبَتِ الأُممُ بقيتِ الرمم.
- إذا زاد تواضع الكبراء؛ كان تَلَطُّفًا في الكبر.
- لا يزال الشعر عاطلاً حتى تُزَيِّنَهُ الحكمة، ولا تزال الحكمة شاردة حتى يُؤويها بيت من الشعر.
- الوقف من حرص النفوس، ويراد به المال لا البنون.
- بين اللحم وَالْحَوْر.. جسرٌ أدق من الصراط.
- ثلاثة لثلاثة بالمرصاد: الموت للحياة، والشقاء للذكاء، والحسد للفضل.
- حَفِ اليائِسَ فإنه لا يَخَاف.
- كِبَرُ الصغِيرِ قبيح كتواضعه، كلاهما في غير موضعه.
- حظ النفس من الحرص، حظ المقاتل من السلاح؛ إذا زاد عن حاجته تخبَّل، وناءً بما حمل، وإذا قصر عنها تقهقر وانخزل.
- اثنان في النار دنيا وأخرى: الحاقِد والحاسد.
- الدين السمح في الرجل السمح، والجنس الكريم في الرجل الكريم، فأحِب من ليس من دينك؛ تُحِبُّ دينك إليه، وأكرم من ليس من جنسك؛ يَكْرُمُ جنسك عليه.
- آفة النصح أن يكون جدالا، وأذاه أن يكون جهارًا.
- في الدنيا مزيد من العقل للعاقل، وامتدادى في الجهل للجاهل.
- اثنان معاديهما في خسر: القوي المغلَّب، والرجل المحبَّب.
- شرف الكبراء كالورد في إبان غضاضته: إذا نزعَت منه ورقة انحل وانتثر، وانتقض جميعه على الأثر.
- تَجَمَّع اللغات على اختلافها الحكمة، كما تجمع شتى المعازف النغمة.
- لا يكن تَلَطُّفُكَ مُذالاً، ولا تُحِبُّكَ ابتذالاً؛ فإن الطُفيليين أعذب الناس كلاماً، وأكثرهم ابتساماً.

خَوَاطِر

- أساطين البيان أربعة: شاعر سارَ بيته، ومصوّر نطق زيته، وموسيقيٌ بكى وتره، ومثأل ضحك حجره.
- من الأمهات تُبنى الأمم.
- الأمية في العقلاءِ شكائم، تتأسى بها البهائم.
- الشباب من الموت خطوة أو ما فوقها، والمشيب من الموت خطوة أو ما دونها.
- الطير لا يقرب أفقًا فسد فضاؤه، والحرية تهرب من بلد اختل قضاؤه.
- إذا ضغط قاضي الأرض في بلد، ضغط عليه قاضي السماء.
- سُورَى من الحجاج وزياد، خير من الفرد ولو كان عُمر.
- خُذْ من مال الناس ما شئتَ، فإن وارثك رادُّه إليهم.
- ليس العلم لك يسفر، حتى يكون لك فيه سطر، وليس الأدب لك كتابًا، حتى تزيد فيه بابًا.
- الإنسان لولا العقلُ عجماء، ولولا القلبُ صخرةٌ صماء.
- من وضع نفسه قصر عن فضيلة التواضع.
- المرءُ كلفُ بما ألف.
- المغرورُ من يظنُّ الناس لا يستغنون عنه؛ والمخدوعُ من يظنُّ أحدًا من الناس لا يستغني الناس عنه.
- من أخلَّ بنفسه في السرِّ، أخلت به في العلانية.
- إذا رأيت المرأة لا تدعُ صلاتها، فلا تثق بها كلَّ الثقة؛ وإذا رأيتها لا تضعُ مرآتها فلا تتهمها كلَّ الاتهام.
- العاقل لا يثق حتى يُجرب، ولا يتهم حتى يَبين.
- ثقةُ العاطفة شهر، وثقة العقل دهر.
- الثقةُ وثاقُ الأحرار.
- الثقة مراتب، فلا ترفعُ لعليا مراتبها إلا الشريك في المرء، المعين على الصرِّ، الأمين على السرِّ.
- من أحسن الثقة بنفسه، فليثق بعدها بمن شاء.
- الوقتُ آلةُ الرزق إذا استعمل، وأفةُ الرزق إذا أهمل.
- يا عدوَّ الزواج: لو كنت العزبُ القدسي عيسى ابن مريم، ما استطعت أن تقطعَ له نَظْمًا، أو تُعطِّلَ له سُنَّةً.

أَسْوَاقُ الدَّهَبِ

- ليس للدنيا بَبِعِل مَنْ خَظَبَهَا بِلَا عَمَلٍ، وَصَجِبَهَا بِلَا أَمَلٍ.
- الْحَقُّ نَبِيٌّ قَلِيلُ التَّبَعِ، وَالْبَاطِلُ مُشْعَوذٌ كَثِيرُ الشَّيْعِ.
- جُنَّي بِالنَّمْرِ الْعَاقِلِ؛ أَجُنَّكَ بِالمُسْتَبِدِّ الْعَادِلِ.
- لَوْ طُلِبَ إِلَى النَّاسِ أَنْ يَحْذِفُوا اللَّغْوَ وَفَضُولَ الْقَوْلِ مِنْ كَلَامِهِمْ، لَكَادَ السَّكُوتُ فِي مَجَالِسِهِمْ يَحِلُّ مَحَلَّ الْكَلَامِ. وَلَوْ طُلِبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُنَقُّوا مَكَاتِبَهُمْ مِنْ تَأْفِهِ الْكُتُبِ وَعَقِيمِهَا، وَأَلَّا يَدَّخِرُوا فِيهَا إِلَّا الْقِيَمَ الْعَبْقَرِيَّ مِنَ الْأَسْفَارِ؛ لَمَا بَقِيَ لَهُمْ مِنْ كُلِّ أَلْفِ رَفٍّ إِلَّا رَفٌّ.